أثر المعرفة التاريخية لدى ابن كثير في كتابه التفسير

إعداد

أ.د. محمد بن إبراهيم بن صالح أبا الخيل

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

جامعة القصيم

أثر المعرفة التاريخية لدى ابن كثير في كتابه التفسير

ملخص البحث:

اعتنى ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) بغالب الآيات القرآنية التي تضمنت عرضاً لقصص الأنبياء والرسل السابقين والأمم الغابرة قبل البعثة النبوية، ثم تلك التي حكت أحداث السيرة النبوية، فحشد الروايات المتنوعة عند شرحها، وعرض أحداثها عرض المستوعب لها، وقد يلخص تلك الأحداث بأسلوبه.

كذلك عند شرحه لكثير من الآيات القرآنية التي لا تحمل في ألفاظها محتوى تاريخاً لم يقف عند المعاني المباشرة لتلك الألفاظ، بل أطنب في شرحها بحوادث تاريخية مستمدة فقط من حوادث التاريخ الإسلامي الممتد من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى القرن الثامن الهجري، العصر الذي عاش فيه.

ولقد تنبه ابن كثير – بما لديه من معلومات تاريخية – إلى العديد من الهنات والأوهام والأخطاء التي صدرت من علماء ومفسرين قبله تطرقوا إلى قضايا تاريخية شملت التاريخ القديم والإسلامي"، فقام بتصحيحها.

كذلك كان ابن كثير على صلة بمصادر التاريخ عموماً في أثناء تفسيره، إذ أُتيح لنا رصد أكثر من عشرين مصدراً من المصادر التاريخية ذكرها بعناوينها وأسماء مصنفيها ناقلاً منها أو محيلاً عليها، دع عنك مؤلفاته التاريخية التي عزا إليها. وقد لاحظنا أنه دقيق في اختيار المصادر التاريخية المناسبة للقضايا والحوادث التي عالجها في تفسيره.

The effects of Ibn Katheer's history knowledge on his tafseer (Interpretation of Holy Quran) book

Dr. Muhammad Ibrahim Abalkhail

Asstract:

Ibn Katheer (Died 774Ah) has given attention to holy Quran verses that mention the stories of prophets, messengers and old nations that came before prophet Mohammad (peace be upon him), also those history events of the history of prophet Mohammad (AlSeerah Alnabaweyah). He mentioned deferent sanad (chain) to those stories at explanation, and went through its events as he fully understood them. While sometimes he summarize those events by his way and words.

Also, when explaining most Quran verses that dose not have a history meaning, he dose not stop to the direct meaning but he goes farther to explain those verses by history events that happened from the time of prophet Mohammad until the eighth century (Ah) which he lived.

Ibn Katheer has given attention – due to the rich history knowledge that he has – to the many mistakes about old and Islamic history that mentioned by many scholars before him, and he went farther to correct those mistakes.

Also, Ibn Katheer was very close in his tafseer to the well know history references. We were able to found more than twenty history references that he mentioned by there names and authors when he refers to or draw some phrases form. Added to that his well know history books that also he refers to. We found him very selective to the suitable references to each history event that he went through in his tafseer.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسولنا المبعوث رحمة للناس أجمعين، وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، وعلى من تبعهم بإحسان واقتفى أثر بإيمان إلى يوم الدين.. أما بعد:

تواطأ المعنيون بالدراسات القرآنية على جعل التاريخ أحد العلوم المساعدة على فهم القرآن، وإدراك معانيه، وشرح آياته، ذاك أن القرآن الكريم اشتمل على كثير من أخبار الأنبياء والأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم، فضلاً عما حواه من حديث مفصل عن حوادث السيرة النبوية. فالمشتغل بتفسير القرآن – بناء على ذلك – لا يستغني عن مصادر التاريخ من أجل تبيان تلك الأخبار والحوادث التاريخية، والتعرف على ظروف حدوثها، والوقوف على مدلولاتها.

ولقد تهيأ لعالم كأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ان يجمع بين العناية بالتفسير والتاريخ، وأن يصنف في كلا المجالين مصنفاً متميزاً، طارت شهرتهما في الآفاق، وكتب لهما القبول في مختلف الأزمان، الأول "تفسير القرآن العظيم"، والآخر "البداية والنهاية". ولئن كانت استفادة ابن كثير من كتابه التاريخ في كتابه التفسير ظهرت بشكل جلي بإحالاته المتعددة إليه، بحيث لا تخفي على المتصفح السريع فإن أثر علمه الواسع بالتاريخ وعنايته به منذ شبابه – بغض النظر عن تصنيفه فيه – يبدو واضحاً في تفسيره بصور مختلفة للناظر المتأمل، إذ تراه يتوسع في شرح الآيات ذات المحتوى التاريخي، ويزيد في إيضاح معاني الآيات القرآنية مستشهداً بوقائع التاريخ، ويناقش على ضوء ما يمتلكه من معلوماتٍ تاريخيةٍ أقوالَ المفسرين السابقين، ويرجع إلى المصادر التاريخية المعتبرة عند المشتغلين بالتاريخ.

إن دراسة أثر علم ابن كثير ومعرفته بالتاريخ في كتابه التفسير يلفت الأنظار إلى أهمية التاريخ بصفته عِلْماً من العلوم الضرورية التي ينبغي الإلمام بها أو الرجوع إليها عند تفسير القرآن وشرح آياته. كما أن دراسته تزودنا بمثال لأحد العلماء المسلمين المصلحين الذين سعوا من خلال تفسير القرآن المحلي بشواهد من التاريخ إلى إصلاح ما كانت تعيشه الأمة الإسلامية في عصره من وهن وضعف، وتذكيرها بماضيها المجيد. كذلك فإن في هذه الدراسة فرصة للوقوف على تصحيح ابن كثير لجملة من الأخطاء التاريخية التي يتناقلها بعض المفسرين.

والمتأمل في كتاب التفسير لابن كثير يجد أثر علمه بالتاريخ قد جاء في شرحه لكثير من الآيات القرآنية التي تعرض لقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو تشير إلى تاريخ الأمم الغابرة، او تتعرض لضلال عقيدة اليهود والنصارى وعرب الجاهلية، أو تتحدث عن أحداث سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، او تؤكد على نصرة المؤمنين، أو تقرر شيئاً ذا علاقة بنظام الحكم في الإسلام. ولعرض ما تم رصده على طول الكتاب من معلومات تخص الموضوع، ودراسته دراسة علمية موثقة قسمناه إلى نقاط أربع، وهي كالتالي:

- التوسع في تفسير الآيات ذات المحتوى التاريخي والكتابة عن أحداثها على طريقة المؤرخين.
- الاستشهاد بحوادث التاريخ لزيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع دلالاتها.
- مناقشة المفسيرين بالأحداث والحقائق التاريخية.
- رجوعه إلى المصادر التاريخية المعتبرة.

ونود أن ننبه – ونحن في هذا التقديم – على أمور:

أولها: أننا لم ندخل في دراستنا كتاب ابن كثير "فضائل القرآن" الذي طبع تارة مفرداً، وتارة مذيلاً بالتفسير، وتارة مضمناً في أوله[1].

ثانيها: حرصنا على تحري ما تميز به ابن كثير عن غيره من المفسرين قبله فيما يخص موضوعنا هذا، فلا نجزم بنسبة شيء إليه من الأقوال أو الآراء التي سقناها في صفحات هذا البحث إلا بعد الاطمئنان أنها ليست مأخوذة من التفاسير التي غالباً ما عول عليها واستفاد منها.

ثالثها: بالنسبة للآثار والأحاديث والقصص التي نقلناها كشواهد في دراستنا فإننا لم نلتفت إلى درجتها من ناحية الصحة والضعف، إذ المقصود الأول في هذه الدراسة بيان أثر علم التاريخ لدى ابن كثير في كتابه التفسير، وليس تتبع تلك الآثار والأحاديث والقصص وتخريجها.

رابعها: نؤكد على ما ألمحنا في كلام مضى مِنْ أن هذا البحث لم يبنَ على كون ابن كثير ألف كتابه التاريخ "البداية والنهاية" قبل التفسير، فمنطلقنا في دراستنا هذه أن التاريخ كان أحد العلوم التي عني بها ابن كثير منذ صغره حتى غدا أحد المكونات الأساسية في شخصيته العلمية، وعندئذ ظهر أثر علمه به بعد ذلك على صحائف كتابه التفسير.

ومن المهم أن نبين في الأخير أنه بعد عزو نصوص ابن كثير وآرائه إلى موضعها من كتابه التفسير سعينا بقدر الطاقة إلى توثيقها من مصادر تاريخية سابقة عليه يُتوقع أنه استفاد منها، ثم في الوقت ذاته قمنا بالرجوع إلى كتابه في التاريخ "البداية والنهاية"، والكتاب المستل منه "السيرة النبوية"، وكتابه في السيرة "الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم"، فما عثرنا عليه من تلك النصوص والآراء فيها وثقناها كذلك.

أسأل الله اللطيف الخبير أن يلهمنا في أمورنا الرشد، وأن يحسن لنا في أعمالنا القصد، وأن يجزل لنا الحسنات، ويتجاوز عن الهفوات، أنه سميع مجيب الدعوات.

برع ابن كثير في علوم شتى كان أبرزها تفسير القرآن والحديث النبوي والتاريخ، يقول العيني عن ابن كثير "وكان له إطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه علم التاريخ والحديث والتفسير"[٢]، وقد أكد أحد معاصريه على تفوقه في هذه العلوم الثلاثة، وأن المرجعية العلمية فيها آلت إليه في عصره، حيث قال ابن حبيب (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) "وانتهت إليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير"[٣]، وقد حلاه ابن ناصر الدين بـ "ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين"[٤].

لقد كان التاريخ أحد العلوم والمعارف التي تميز بها ابن كثير، فكان إطلاعه فيه واسعاً، ومعرفته به كبيرة، ولذا انتهت إليه رئاسته في عصره، فأطلق عليه عمدة المؤرخين، ويظهر أن بلوغ ابن كثير هذه المنزلة في مجال التاريخ جاء نتيجة توجهه في وقت مبكر من عمره إلى تحصيله، إذ كان أحد العلوم التي أقبل على تلقيها ودراستها في شبابه، قال ابن قاضي شهبة[٥] حاكياً عنه "وأقبل على حفظ المتون، ومعرفة الأسانيد والعلل والرجال والتاريخ حتى برع في ذلك، وهو شاب". كذلك فإنه تتلمذ على من عنوا بالتاريخ أو صاحبهم مثل علم الدين البِرزالي (ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م) الذي عرف في زمنه بـ "مؤرخ العصر"[٦]، وكان ابن كثير ينعته بـ "شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي"[٧]، وقد كان كتابه في التاريخ المسمى بـ "المقفى لتاريخ أبي شامة" الذي يؤرخ للحوادث الواقعة بين ٦٦٥هـ/١٢٦٦م حتى ٧٣٨هـ/١٣٣٨م –كان هو الكتاب الذي انتفى منه ابن كثير ما يخص هذه الحقبة الزمنية من حوادث في كتابه البداية والنهاية[٨]. كذلك فإن من العلماء الذين عاصرهم ابن كثير، فصحبهم أو تأثر بهم ممن عنوا بالتاريخ: المؤرخ المشهور شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ/١٣٤٨م) الذي ينعته أيضاً بـ "شيخنا ... مؤرخ الإسلام"[٩]، و "الشيخ الإمام الحافظ مؤرخ

الإسلام"[١٠]، و "الشيخ الحافظ الكبير مؤرخ الإسلام، وشيخ المحدثين"[١١]. ولعل ما خلفه ابن كثير من مؤلفات تاريخية يشهد بريادته في هذا المجال، فبجانب تاريخه الكبير (البداية والنهاية) صنف عدة كتب في ميدان التاريخ منها: الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وطبقات الشافعية، ومناقب الشافعي[١٢].

إذن احتل التاريخ لدى ابن كثير مساحة واسعة من نشاطه وفكره، واستحوذ على قسط كبير من عنايته واهتماماته، وأخذ جزءاً عريضاً من تفكيره وكتاباته، وقد لاحظ ابن حجي (ت٨١٦هـ/١٤١٣م) – احد تلاميذه – أن التاريخ بجانب التفسير مما كان ابن كثير يستحضر منهما قدراً كبيراً، فقال في معرض تعداد ما عرفه عنه "وكان يستحضر شيئاً كثيراً من التفسير والتاريخ، قليل النسيان..."[١٣]. ومن خلال النظر في تفسيره الشهير (تفسير القرآن العظيم) لاحظنا أن لمعرفة ابن كثير الواسعة بالتاريخ انعكاساً واضحاً، وأثراً مشهوداً في كثير منصفحات الكتاب، وننبه أنه كما أحال في مواضع كثيرة من تاريخه (البداية والنهاية) إلى التفسير[١٤]، فإنه في الوقت عينه أحال أيضاً في مواضع متعددة من تفسيره إلى كتابه هذا في التاريخ[١٥]، ولعل هذا يلهم دوام اشتغاله بهذين العلمين، واستمراره في مراجعته لكتابيه المذكورين، وحرصه على تنقيحهما والإضافة إليهما، واستفادته من أحدهما للآخر.

وللوقوف على هذا الأثر بصورة وافية، ودراسته دراسة علمية محكمة فإننا سنتناوله من خلال النقاط الرئيسة التالية:

أولاً – التوسع في تفسير الآيات ذات المحتوى التاريخي والكتابة عن أحداثها على طريقة المؤرخين:

عرض القرآن الكريم صفحات من حياة الأنبياء والمرسلين السابقين وسيرهم مع أقوامهم، وأشار إلى جوانب من تاريخ الأمم والشعوب البائدة، وتناول مظاهر متنوعة من حياة العرب في الجاهلية القريبة من الإسلام والمتصلة به، وألمح إلى شئ من أخبار الأمم المعاصرة لنزوله، فضلاً عما جاء فيه عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأحداث مغازيه.

ولقد انعكس علم ابن كثير بالتاريخ ومعرفته به في تفسيره للعديد من الآيات القرآنية التي جاءت في هذا الباب، إذ عزز ما نقله عن المفسرين السابقين في شرحهم لتلك الآيات بإضافات جديدة من الأخبار والوقائع التاريخية، مفصلاً لكثير من الأحداث والقصص، ومسهباً في التعريف بالعديد من الشخصيات والأقوام، وقد اختلفت طريقته في ذلك من موضع إلى آخر، ففي مواضع تراه يكتب شرح الآية مباشرة منطلقاً من توافر لديه من معلومات تاريخية[١٦]، وقد يطعم ذلك الشرح بروايات تاريخية[١٧]، وفي مواضع أخرى تراه يصدر شرحه بكتابة خلاصة للروايات التاريخية المتعلقة بما تضمنه معنى الآية، ثم يسرد تلك الروايات واحدة تلو الأخرى[١٨]، أو يكون عكس ذلك، فيبدأ بسرد الروايات، ثم يختم بكتابة الخلاصة[١٩]، وربما اكتفى فقط بحشد للروايات التاريخية[٢٠]. وقد جاء ما كتبه ابن كثير من شرح لتلك الآيات ذات المحتوى التاريخي — جاء بأسلوب المؤرخ المتمرس على كتابة التاريخ، إذ كتبه بسياق مترابط البناء، متناسق العبارات، مستوف لمضمون الحدث، ملمٍ بمختلف أطرافه.

وإذا رجعنا إلى المواضع التي عني فيها ابن كثير في ذكر الأخبار والأحداث التاريخية في ثنايا تفسيره، وصنفناها حسب موضوعاتها فيمكننا تقسيمها إلى أقسام ثلاثة، القسم الأول يتعلق بتاريخ الأنبياء وبني إسرائيل والروم، والثاني بتاريخ الجزيرة العربية وتاريخ العرب قبل البعثة النبوية، والثالث بسيرة النبي صلى الله

عليه وسلم. وسنحاول أن نستعرض كل قسم منها مجتمهدين في اقتباس مقاطع من كلام ابن كثير في شرحه لتلك الآيات.

ففيما يتصل بالأنبياء فقد شرح ابن كثير الآيات الخاصة بهم مثله كمثل بقية المفسرين، ولكنه في مواضع معينة توسع في الكتابة عن تاريخ بعضهم وأقوامهم، فمن أبرز قصص الأنبياء التي اعتنى بها ابن كثير وكتب عنها قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فلقد شرح الآيات الخاصة بها في سورة الأعراف[٢١]، بيد أنه لما وصل إلى آياتها في سورة يونس كتب بأسلوبه ملخصاً لها، فقال "وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن رَبِّي هذا الذي يُحذَّر منه – على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة تعالى، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر ... وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شئ، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شئ، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وَمَلَؤه – قبحهم الله – على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يُرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين"[٢٢]. ثم تابع تفسيره للآيات التالية حتى كتب أيضاً بأسلوبه بشئ من التفصيل عن حادثة إغراق فرعون[٢٣].

وكان من قبل ذلك في سورة المائدة قد تحدث عن تيه بني إسرائيل عند شرحه لقوله تعالى (قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ) (المائدة: ٢٦)، فمما عبر عنه ما نصه "لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكَلُوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدراً مدة أربعين سنة، فوقعوا في التيه يسيرون دائماً لا يهتدون للخروج منه، وفيه كانت أمور عجيبة، وخوارق كثيرة، من تظليلهم بالغَمام، وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن أخراج الماء الجاري من صخرة صماء ... وهناك أنزلت التوراة، ...، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام، ثم بعده بمدة ثلاثة سنين مات موسى الكليم عليه موسى، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبياً خليفة عن موسى ... ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة، ... فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجيل الثاني، فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها، فكان فتحها ..." [٢٤]. ثم نقل روايات تحكي بعضاً مما ساقه عن تلك الحقبة من تاريخ بني إسرائيل[٢٥].

كذلك كتب عن خبر عيسى عليه السلام مع اليهود عند تفسير قول الله جل وعلا (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ) (النساء: ١٥٧) ففصل في ذلك، حيث ذكر بعث الله لعيسى عليه السلام، وتأييده بالمعجزات مثل إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، ثم تحدث عن تكذيب اليهود وأذاهم لعيسى عليه السلام، وسعيهم لدى ملوك زمانهم لقتله، وقيام حاكم بيت المقدس بمحاصرته مع الحواريين الذين كانوا برفقته، ورفع الله سبحانه لد بعد أن أُلقي شبهه على شاب من أتباعه كان قد انتدب نفسه لذلك، ثم أدرف ابن كثير قائلاً "فلما رأى أولئك ذلك الشاب طنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتبجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقون فإنهم ظنوا

كما أن اليهود وأن المصلوب هو المسيح ابن مريم ... ، وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم ... فقال تعالى ... (ومَا قَتَلُوهُ ومَا صَلَبُوهُ ولَكِن شُبِّهَ لَهُمْ)[٢٦]. وبعد أن كتب بالتفصيل قصة عيسى عليه السلام مع اليهود راح ينقل روايات مطولة عن المفسرين المتقدمين تحكي ذلك[٢٧].

ولقد تكلم ابن كثير عن حال النصارى بعد رفع عيسى عليه السلام عند تفسيره لقول الله سبحانه (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إِلَيَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ) (آل عمران: ٥٥) فذكر أنه لما رُفع عليه السلام تفرق أتباعه شيعاً، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله، ومنهم من غلا فيه، وقد استمروا كذلك قريباً من ثلاثمائة سنة، ثم دخل الإمبراطور قسطنطين[٢٨] في الدين النصراني فعمل على تبديله وتحريفه، ثم قال "وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصَلّوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه – فيما يزعمون–، وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بني لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف ... ، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المِلْكِيَّة منهم ..." [٢٩]. وفي موضع آخر عاد ابن كثير وكتب تفاصيل أخرى عن هذا المجتمع النصراني الأول الذي حدث فيه تلك التحريفات فقال عند قوله تعالى (فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ) (مريم: ٣٧) جمع قسطنطين "ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا في عيسى ابن مريم عليه السلام اختلافاً متبايناً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولاً، وسبعون تقول فيه قولاً آخر، وخمسون تقول فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصَمَّموا عليه، ومال إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هي الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء، وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحَرَّفوا دين المسيح وغيروه، فابتني حينئذ لهم الكنائس الكبار

في مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس في أيامه ما يقارب اثنتي عشرة ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمَامة على المكان الذي صلب فيه المصلوب الذي تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح ..."[٣٠].

وفي موضع ثالث كتب عن هذا المجمع وأشار بعده إلى المجمع الثاني والثالث اللذين تولدت عنهما فرق نصرانية[٣١]. وكذلك أشار إلى المدن النصرانية التي كان فيها بطاركة، وذكر أنهن أربع مدن، وهن — كما قال — "القدس، لأنها بلد المسيح، وأنطاكية، لأنها أول بلدة آمنت بالمسيح عن آخر أهلها، والإسكندرية، لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البطاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين، ثم رومية، لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأطَّدَه. ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها"[٣٢].

وإذا كان ابن كثير قد عرض لحقب محددة من تاريخ بني إسرائيل فيما أوردناه آنفاً فإنه عند تفسيره لقوله تعالى (وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ) (يونس: ٩٣) عرض بإيجاز — وبسياق واحد — تاريخاً عاماً لبني إسرائيل، حيث جاء ذلك في حديثه عن حياة بني إسرائيل في مصر والشام، فمما قاله "فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ... و... استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس ... وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة ..."[٣٣]. وبعد ذكره لهذا القدر من تاريخ بني إسرائيل تحدث عن مبعث عيسى عليه السلام، وما حصل من وشاية اليهود به، ورفع الله تعالى

له، ثم مجئ قسطنطين بعد نحو ثلاث مائة وتحريفه النصرانية، وبقاء النصارى يحكمون تلك البلاد حتى أخرجهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منها[٣٤].

وفي صدر سورة الروم كتب مطولا عن شئ من تاريخ الروم وحربهم مع الفرس، فابتدأ بالحديث عن نسب الروم فقال إنهم "من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم، وهم أبناء عم بني إسرائيل، ويقال لهم: بنو الأصفر"، وذكر أنهم على دين اليونانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة، فما زالوا على ذلك حتى دخل في الدين النصراني ملكهم قسطنطين بعد مضي نحو ثلاثمائة سنة من مبعث المسيح عليه السلام، وبعد ذلك راح يتحدث عن أشياء طرقها أكثر من مرة في تفسيره، حيث كتب عما حدث في الدين النصراني من تبديل وتحريف في زمن قسطنطين، كما تطرق لنشوء الفرق النصرانية المختلفة، ثم أشار إلى هرقل الذي حصل في عهده الحرب مع الفرس المذكورة في سورة الروم فذكر أنه "كان من عقلاء الرجال، ومن أحزم الملوك وأدهاهم"، ثم تحدث بتوسع عن الحرب بين الفرس والروم، حيث ذكر أن كسرى ملك الفرس – وهو سابور ذو الأكتاف – ناوأ هرقل، وغزاه في مملكته وكسره حتى حاصره في عاصمته القسطنطينية، فلما طال الأمر دبر هرقل مكيدة، حيث عرض على كسرى الصلح مقابل ما يشاء من أموال على أن يمكنه من الخروج إلى أقاليم مملكته لجمع تلك الأموال، فأجابه كسرى إلى ذلك، فخرج هرقل وجمع جيشاً وهاجم بلاد الفرس وعاث فيها حتى انتهى إلى المدائن عاصمة كسرى الذي ظل محاصراً القسطنطينية، فأسر نساءه وولده، وبعثهم إليه قائلاً: هذا ما طلبت فخذه، فغضب كسرى وشدد الحصار على القسطنطينية، ثم تركها وسعى لقطع الطريق على هرقل للحيلولة دون رجوعه إلى عاصمته، فترصد له عند لنهر جيحون، ولكن هرقل فاته بخدعة دبرها، واستمر في مسيرة حتى عاد إلى بلده القسطنطينية منتصراً. وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب الفرس للروم[٣٥].

أما بالنسبة لتاريخ الجزيرة العربية والعرب قبل الإسلام فقد تناول ابن كثير جوانب مختلفة منه في ثنايا التفسير، فلقد افتتح شرحه لقول الله تعالى (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ) (سبأ: ١٥) بكلام مختصر عن سبأ وما كانوا فيه من نعمة، ثم كيف أعرضوا فعوقبوا بسيل العرم(٣٦)، وبعد ذلك نقل أحاديث تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تعرف بسبأ وأولاده، ثم أورد ما قيل عن اسم سبأ وسلسلة نسبه، ونقل إن "اسم سبأ عبد بن شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبى العرب"(٣٧)، ثم استطرد في ذكر نسب قحطان، وأشار إلى الاختلاف في ذلك على ثلاثة أقوال أحدها – وهو غير مشهور – أنه من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقد احتج لهذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لنفر من أسلم – كما في الحديث الصحيح – "ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً"، وقد عقب عليه بقوله "فأسلم قبيلة من الأنصار، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ في البلاد، حين بعث الله عليهم سيل العرم، ونزلت طائفة منهم بالشام"(٣٨). بعدها تطرق للسد فقال "وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين، وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعَمَدَ ملكوهم الأقادم، فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتى ارتفع الماء، وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار، واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ... وكان هذا السد بمأرب: بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل، ويعرف بسد مأرب"(٣٩). ثم نقل الأقوال في عقوبة الله سبحانه لهؤلاء القوم، ولما انتهى من شرح معاني الآيات الخاصة بقصتهم ساق الروايات الخاصة بخراب السد وتفرقهم في البلاد(٤٠).

وفي تفسيره للآيات المتعلقة بملكة سبأ: بلقيس التي ورد خبرها مع سليمان عليه السلام قام بشرح معانيها معتمداً على من سبقه، ولكنه لما عرض الأقوال عن سعة ملكها وقوة سلطانها أوضح وجهة نظره

منطلقاً من حسه التاريخي، حيث نقل أن تحت يدها اثني عشر ألف ملك، وكل ملك تحت قيادته مائة ألف مقاتل، ثم أورد قولاً آخر من أن أولي "مشورتها ثلاثمائة واثني عشر رجلاً، كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل"، بعد ذلك عقب قائلاً "وهذا القول هو أقرب، على أنه كثير على مملكة اليمن، والله أعلم"(٤١). كذلك فقد وقف عند وصف عرشها فقال إنه سرير عظيم، مزخرف بالذهب، ثم نقل عن الكتب التاريخية بأن هذا السرير كان "في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم، كان فيه ثلاثمائة وستون طاقة من شرقه، ومثلها من غربه، قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة، وتغرب من مقابلتها، فيسجدون لها صباحاً ومساء"(٤٢).

ولقد عرج ابن كثير على تاريخ اليمن كذلك عند شروحه لقوله تعالى (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ والَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) (الدخان: ٣٧) فذكر أن قوم تبع كانوا من سبأ، وأنه كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعا، وأن بعض تبابعتهم (ملوكهم) – وهو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو كرب بن ملكيكرب – قد سار في البلاد فاتحاً حتى وصل سمرقند، فاتسعت مملكته، وكثرت رعاياه، ثم ذكر مروره بيثرب ومقاتلته لأهلها، التحاق حبرين من أحبار اليهود به وتأثره بهما، ثم وصوله مكة وطوافه بالكعبة وكسوته لها، ثم رجوعه إلى اليمن ودعوته قومه إلى اعتناق اليهودية، ومن ثم تهود عامة أهل اليمن(٤٤). ثم نقل أن تبعاً هذا حكم "ثلاثمائة وستاً وعشرين سنة، فلم يكن في حمير أطول مدة منه، وتوفي قبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو من سبعمائة عام"(٤٥).

وفي شرح سورة البروج عرض ابن كثير كحال غالب المفسرين أكثر من قصة حول أصحاب الأخدود، اختلفت في مكان حدوثها بين فارس واليمن(٤٦)، لكن ابن كثير جعل خاتمتها الخبر المشهور عن ذي نُواسَ في اليمن، فذكر ما ملخصه أن هذا الملك اسمه: زرعة، أو يوسف، وهو ابن تبان أسعد أبي كرب،

وكان على اليهودية، وحين بلغه دخول أهل نجران في النصرانية سار إليهم وخيرهم بين اليهودية أو القتل حرقاً في الأخدود، فقتل منهم عشرين ألفاً، ولم ينجُ منهم إلا رجل أوصل الخبر إلى قيصر الروم الذي أوعز إلى نصارى الحبشة الذين غزوا اليمن، ففر ذو نواس ومات غريقاً، وقد ظل الأحباش يحكمون اليمن سبعين سنة حتى استعاده الملك الحميري سيف بن ذي يزن بمساعدة الفرس(٤٧).

وكان ابن كثير في آخر حديثه عن خبر ذي نواس قد وعد أنه سيذكر طرفاً من أخبار اليمن في تفسير سورة الفيل، فعندما جاء إلى تفسير هذه السورة افتتح كلامه بقوله "وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب"(٤٨)، ثم أخذ في سردها مقتبساً عدداً من الروايات، حيث أشار إلى حديثه السابق عن ذي نواس ونهايته على أيدي الأحباش، ثم ذكر تنافس أبرهة وأرياط قائدي الأحباش على حكم اليمن، واستقلال أبرهة بالحكم بعد قتل إرياط، ثم استرضاءه النجاشي بعد غضبه عليه، وبعدها تطرق لبناء أبرهة بناية في اليمن لصرف حج العرب إليهم، وإحداث بعض العرب فيها، ومن ثم توجهه بجيش كبير تصحبه الفيلة إلى مكة لهدم الكعبة، ثم نهاية الجيش بإرسال الله الطير الأبابيل التي كانت تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة، فلم تدع أحداً منهم إلا أصابته وأهلكته بمن فيهم قائدهم أبرهة، وبعده حكم ابنه يكسوم، ثم أخوه مسروق بن أبرهة، وعقب ذلك خرج سيف بن ذي يزن الحميري إلى كسرى فاستغاثه، فأرسل معه جيشاً فاسترد ملك آبائه من الأحباش(٤٩).

أما ما يتعلق بعرب الحجاز قبل البعثة النبوية فقد عرف قليلاً بعمرو بن لحي الخزاعي حين شرح قوله تعالى) (المائدة: ١٠٣) بصفته أنه أول من سيب السوائب، وصرف الناس عن الحنيفية، إذ قال عنه "فعمرو هذا: هو ابن لحي بن قَمَعَة، أحد رؤساء خزاعة الذين ولَوا البيت بعد جَرْهم. وكان أول من غير دين إبراهيم

الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادها، والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها..." (٥٠).

كذلك تحدث عن النسيء عند العرب فذكر بدايته وطريقته واستمراره حتى مجيء الإسلام لما وصل إلى شرح قول الله سبحانه (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا ويُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ) (التوبة: ٣٧) فنقل ما نصه "كان أول من نسأ الشهور على العرب، فأحل منها ما حرم الله، وحرم منها ما أحل الله عز وجل: القَلَمَّس، وهو: حذيفة بن عبد فُقَيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خُزَيمة بن مدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن مَعدَّ بن عدنان، ثم قام بعده على ذلك ابنه عَبَّاد، ثم من بعد ابنه قَلَع بن عباد، ثم ابنه أمية بن قلع، ثم ابنه عوف بن أمية، ثم ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان أخرهم، وعليه قام الإسلام. فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فقام فيهم خطيباً، فحرم رجباً، وذا القعدة، ويحل المحرم عاماً، ويجعل مكانه صفر، ويحرمه عاماً ليواطئ عدة ما حرم الله، فيحل ما حرم الله، يعني: ويحرم ما أحل الله"(٥١).

وأيضاً كتب عن أصنام العرب وأوثانهم حين فسر قوله تعالى (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والْعُزَّى * ومَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى) (النجم: ١٩-٢٠) فقال عن اللات "وكانت ... صخرةً بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسَدَنة، وحوله فناء معظّم عند أهل الطائف، وهم تسقيف ومن تابعها، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش"(٥٢). وقال في الموضع نفسه عن العزى "وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، وهي بين مكة والطائف، وكانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا العزى ولا عزّى لكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم"(٥٣). كذلك قال عن مناة "وأما مناة

فكانت بالمشَلَّل عند قُدَيد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويُهلّون منها للحج إلى الكعبة"(٥٤).

وبالنسبة لأحداث السيرة النبوية التي اعتنى بها ابن كثير في تفسيره خلال شرحه للآيات ذات المحتوى التاريخي فيطالعنا من العهد المكي ما أضافه من معلومات تاريخية على ما قاله المفسرون في احتمال أن يكون المقصود بقوله تعالى (والَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً) (النحل: ٤١) أنهم هم المسلمون المهاجرون إلى الحبشة، فقال "ومن أشرافهم (يعني المهاجرين): عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجعفر بن أبي طالب، ابن عم الرسول، وأبو سلمة بن عبد الأسد في جماعة قريب من ثمانين ما بين رجل وامرأة صديق وصديقة رضي الله عنهم وأرضاهم"(٥٥).

كذلك في مطلع تفسيره لسورة الإسراء حشد بشكل مطول الروايات الحديثة الواردة التي تحكي حادثة رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس وعروجه إلى السماء حتى تجاوزت صفحاتها الثلاثين صفحة(٥٦)، فلما انتهى من سردها عقب بقوله "وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس..." (٥٧)، وبعد ذلك كتب بأسلوبه ملخصاً مركزاً لما اشتهر من وقائع حادثة الإسراء والمعراج(٥٨).

وإذا انتقلنا إلى أحداث العهد المدني من السيرة النبوية التي خصها ابن كثير بالتعليق والإضافة عند تفسيره للآيات ذات المحتوى التاريخي فسنرى أنها شملت أكثر الغزوات النبوية الكبرى، فضلاً عن بعض أخبار الوفود. فلقد أوجز بعبارات قليلة التعريف بغزوة بدر عند شرحه لقول الله جل وعز (ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (آل عمران: ١٢٣) فقال عن يوم بدر أنه "كان يوم جمعة وافق السابع

عشر من رمضان، من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغَ فيه الشرك وخرّضب مَحِله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فيهم فَرَسان وسبعُون بعِيراً، والباقون مُشاة، ليس معهم من العُدَد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبَيض، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبَيَّضَ زَجْه النبي وقبيله، وأخْزى الشيطان وجيله"[٥٩]. كذلك لما وصل إلى تفسير الآيات الخاصة بغزوة بدر في سورة الأنفال عاد وكتب بعبارات أخرى موجزاً آخر عنها[٦٠]، دع عنك ما نقله روايات تاريخية تفصل أحداثها لما شرح الآيات التي نزلت في شأنها في ثنايا هذه السورة[٦١].

وفي صدر سورة الحشر تحدث عن غزوة يهود بن النضير، حيث ساق حديثاً فيه تهديد قريش لبني النضير عقب غزوة بدر بمقاتلتهم إذا لم يقاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم، فلما علم صلى الله عليه وسلم خرج إليهم وطلب منهم العهد فأبوا، فعندئذ حاصرهم حتى أجلاهم[٦٢]. وقد عقب ابن كثير على ذلك بقوله "ولنذكر ملخص غزوة بن النضير على وجه الاختصار" ثم أورد سببها "فيما ذكره أصحاب المغازي والسير" على حد تعبيره[٦٣]، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إلى بني النضير يستعينهم في دية رجلين قتلهما أحد أصحابه، فأرادا قتله بإلقاء الصخرة عليه، لكن الوحي أخبره بذلك، فعاد وتهيأ لقتالهم وحاصرهم حتى أجلاهم من ديارهم. وقد ذكر أحداث هذه الغزوة كاملة[٦٤].

ومن الغزوات التي وقف عندها ابن كثير غزوة أحد، وذلك في تفسيره للآيات النازلة في شأنها من سورة آل عمران، فعند شرحه لقول الحق تبارك وتعالى (وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ المؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ واللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (آل عمران: ١٢١) ذكر أن غزوة أحد وقعت في شوال سنة ٣هـ، وأن سببها تمثل في كون أبناء المشركين المقتولين في بدر أرادوا الثأر من المسلمين، فرصدوا لحربهم الأموال التي كانت قد نجت من

قبضتهم قبيل بدر، وقدموا المدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، وذكر مشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في البقاء في المدينة أو الخروج لهم، ثم خروجه على رأي الأغلبية في ألف مقاتل، ورجوع عبد الله بن أبي في ثلث الجيش، ثم ذكر تعبئة الطرفين واستعداهما للقتال[٦٥]. وبعد ذلك أخذ ابن كثير ينقل الأحاديث والروايات الموضحة لأحداث غزوة أحد حسب ما ورد في بقية الآيات[٦٦].

ولقد نقل في تفسيره لسورة المنافقون روايات متعددة في خبر ما حصل في غزوة بني المصطلق (المريسيع) من خلاف بين المسلمين، وتفوه المنافق عبد الله بن أبي سلول بكلام قبيح في حق الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ووصول هذا الكلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وموقفه صلى الله عليه وسلم من ذلك. وقد اكتفى هنا بعرض تلك الروايات ولم يكتب شيئاً عنها بأسلوبه[٦٧].

كذلك في تفسيره لقول الله تعالى من سورة الأحزاب (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ) (الأحزاب: ٩) بين أن هذا وقع في عام الخندق، وذلك في شوال سنة ٥هـ، ثم كتب ملخصاً وافياً عن أحداث غزوة الأحزاب[٦٨]، ثم راح بعد ذلك ينقل من كتب الحديث والمغازي روايات تتوافق مع ما يشرحه من آيات تتعلق بهذه الغزوة[٦٩]. ولما وصل إلى قوله سبحانه (وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ) (الأحزاب: ٢٦) تحدث عن غزوة النبي صلى الله عليه وسلم ليهود بني قريظة الذي كانوا قد نقضوا العهد أيام الأحزاب، وقد كتب عن هذه الغزوة بأسلوبه منذ أن تحرك نحوهم الرسول صلى الله عليه وسلم حتى القضاء عليهم، وقد اقتبس في أثناء حديثه عنها الأحاديث النبوية الواردة في شأنها، وفي ختام كلامه قال "وهذا كله مقرر مفصل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة الذي أفردناه موجزاً وبسيطاً، ولله الحمد والمنة"[٧٠]، وعقب ذلك نقل بعض الروايات المفصلة لبعض الأحداث التي ساقها في حديثه عن هذه الغزوة[٧١].

ولقد كتب ابن كثير عن الأحداث الواقعة عقب صلح الحديبية حتى انتهى إلى الحديث عن عمرة القضاء، وذلك عند قوله تعالى (لاَ تَخَافُونَ) (الفتح: ٢٧)، حيث قال "وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة، فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه، بعضها عنوة وبعضها صلحاً، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ... ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة سنة سبع خرج إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية ..." [٧٢]، ثم استمر في سرد خبر عمرة القضاء حتى خلص إلى قوله "فهذا مجموع من روايات متفرقة"[٧٣]. ثم ذكر بعض الروايات التي صورت دخول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة في هذه العمرة[٧٤].

وفي تفسير أول سورة الممتحنة عرض لخبر يتعلق بفتح مكة، وهو ما قام به حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه من إخبار أهل مكة بعزم الرسول صلى الله عليه وسلم على التوجه إليهم، حيث عرف ابن كثير بهذا الصحابي، وأشار إلى فعله[٧٥]، ثم ساق الروايات المختلفة الوارد في خبره نقلاً عن كتب السيرة وغيرها[٧٦].

ومن الغزوات النبوية التي ساقها ابن كثير بتعبيره غزوة حنين، وذلك عند شرحه لقول الله عز وجل (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ويَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا) (التوبة: ٢٥)، حيث افتتح كلامه عنها بالقول "وقد كانت وقعة حُنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة، وذلك لما فرغ عليه السلام من فتح مكة، وتمهدت أمورها، وأسلم عامة أهلها، وأطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغه أن هوزان جمعوا له ليقاتلوه ... إلخ"[٧٧]. وحين انتهى من تفصيل الكلام عنها أورد نصوص الأحاديث والأخبار التي تحكي أحداثها[٧٨].

ولقد عرض لغزوة تبوك باختصار في شرحه لقول الله تعالى من سورة التوبة (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ولا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ) (التوبة: ٢٩) فقال "وهذه الآية الكريمة نزلت أول الأمر بقتال أهل الكتاب، بعد ما تمهدت أمور المشركين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، فلما استقامت جزيرة العرب أمر الله ورسوله بقتال أهل الكتابين اليهود والنصارى، وكان ذلك في سنة تسع، ولهذا تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لقتال الروم، ودعا الناس إلى ذلك، وأظهره لهم، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة فندبهم، فَأَوْعَبَوا معه، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفاً، وتخلف بعضُ الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم، وكان ذلك في عام جَدْب، ووقت قَيْظ وحر، وخرج عليه السلام يريد الشام لقتال الروم، فبلغ تبوك، فنزل بها، وأقام على مائها قريباً من عشرين يوماً، ثم استخار الله في الرجوع، فرجع عامه ذلك لضيق الحال وضعف الناس..." [٧٩].

وثمة حدث من أحداث السيرة النبوية اعتنى به ابن كثير في ثنايا تفسيره، وهو وفد أهل نجران، وذلك عند شرحه لقول الحق سبحانه (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأَبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الكَاذِبِينَ) (آل عمران: ٦١) حيث نقل عدداً من نصوص الروايات المستقاة من كتب التفسير والسيرة، تحكي قصة وفادتهم على النبي صلى الله عليه وسلم[٨٠]، ثم عقب بقوله "والغرض أن وفودهم كان في سنة تسع، لأن الزهري قال: كان أهل نجران أول من أدى الجزية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح ..." [٨١].

ويحسن بنا أن نختم هذه النقطة بموضع حشد فيه ابن كثير معلومات تاريخية جمعت بين تاريخ الأنبياء وتاريخ الجزيرة العربية والسيرة النبوية ثم تجاوزت ذلك إلى التاريخ الإسلامي بعد العصر النبوي، ونعني بذلك ما أفاض به من كلام عن تاريخ البيت الحرام عند شرحه لقوله عز وجل (وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ

وإِسْمَاعِيلُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، فلقد روى أحاديث مطولة في مجئ إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى مكة، ثم تركه زوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل عليهما السلام فيها، وتفجر ماء زمزم، وقدوم جرهم وسكناهم بجوار أم إسماعيل، وبناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت[٨٢]. ولم يكتِف بذلك بل خصص ما يمكن أن نسميه مبحثاً للحديث عن بناء الكعبة قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وعنون له بـ "ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدة طويلة، وقبل مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنين، وقد نقل معهم الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين"، وتحت هذا العنوان توسع في تفصيل حادثة بناء قريش للكعبة ومشاركة الرسول صلى الله عليه وسلم فيها[٨٣]، ثم كتب قائلاً "ولم تزل على بناء قريش حتى أحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين في آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير[٨٤]، فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحِجْر، وجعل لها باباً شرقيّاً وباباً غربيّاً ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تزل كذلك مُدَّة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كنت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوان له بذلك ..."، وقد ساق أحاديث تؤيد ما قاله هنا[٨٥]، ثم عقب على ذلك بقوله "ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كَرِه بعض العلماء أن يغير عن حاله، كما ذُكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد – أو أبيه المهدي – أنه سأل الإمام مالكاً عن هدم الكعبة، وردّها إلى ما فعله ابن الزبير، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين ! لا تجعل كعبة الله مَلْعَبَة للملوك، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها، فترك ذلك الرشيد ..." [٨٦].

وهكذا رأينا ابن كثير توسع في تفسير كثير من الآيات القرآنية ذات المحتوى التاريخي، فحشد الروايات، وأسهب في تفاصيل الأحداث، وقد طغى على كتابته في شرح تلك الآيات منهج المؤرخين ولغتهم وأسلوبهم.

ثانياً – الاستشهاد بحوادث التاريخ لزيادة إيضاح معاني الآيات القرآنية وتوسيع دلالاتها:

يختلف المفسرون في شرحهم للآيات القرآنية من مفسر إلى آخر، وذلك حسب مناهجهم في التفسير، وأغراضهم من التأليف. كذلك فإن هذا الشرح يخضع لما يحملونه من علم ومعرفة، وما ينطلقون منه من فكر وثقافة، وما يتمتعون به من وعي وبصيرة، وما يعايشونه من أحداث وأوضاع. والإمام ابن كثير في تفسيره سار على منهج واضح، حيث "يذكر الآية، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة، ثم يفسرها بآيات أخرى إن وجد لها شواهد ... ثم يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي لها تعلق بالآية المفسرة ...، فإن لم يجد أحاديث مرفوعة انتقل إلى ما ورد عن الصحابة، ثم إلى أقوال التابعين وأهل العلم من المتقدمين"(٨٧). وقد ظهر على صفحات الكتاب سعة إطلاع ابن كثير، وتنوع معارفه، ودقة استشهاداته، ووعيه بالواقع.

وعلى صعيد آخر نرى ابن كثير يقف عند العديد من الآيات القرآنية التي قد لا تحمل محتوىً تاريخياً، فيزيد في إيضاحها، ويمد في معانيها، ويوسع في دلالاتها بشواهد من السيرة والتاريخ مستفيداً من إطلاعه الواسع في هذا الميدان، فهو لا يكتفي بما يتصل بالمعاني المباشرة لمثل هذه الآيات، بل يتجاوز ذلك ليسيح في أجوائها، ويبحر في آفاقها. وبتتبع موضوعات تلك الآيات التي خصها ابن كثير بمزيد من البيان في هذا الباب نجد أن جملة منها ذات صلة بالهم الكبير الذي كان يحمله مع كوكبة مباركة من علماء عصره في القرن الثامن الهجري، وجندوا أنفسهم في سبيله، إلا وهو تصحيح عقيدة الأمة، ودعوتها إلى تطبيق تعاليم دينها، وتنقية تراثها مما علق به من بدع وأوهام، ولم شعثها، وتوحيد كلمتها، وإعادة العزة والكرامة إليها.

ولتجلية أثر المعرفة التاريخية عند ابن كثير في هذه النقطة، وليسهل علينا دراستها بشكل واضح ومرتب فإننا سوف نقسم تلك الشواهد التاريخية التي توافرت لدينا إلى أقسام خمسة: شواهد من السيرة النبوية، شواهد جامعة بين السيرة وعصر الخلافة الراشدة، شواهد من عصر الخلافة الراشدة، شواهد من أحداث التاريخ الإسلامي بعد الخلافة الراشدة، وحديث عام عن انتصارات الإسلام والمسلمين على مدار التاريخ الإسلامي.

الأول: شواهد من السيرة النبوية:

طبيعي أن تأتي مقاطع عريضة من أحداث السيرة النبوية في كتب التفسير، فالقرآن الكريم –كما هو معلوم – جاءت في ثناياه كثير من الآيات التي عرضت لمسيرة حياة النبي صلى الله عليه وسلم[٨٨]، سواء ما ورد من آيات قليلة تشير إلى حياته قبل البعثة، أو ما جاء في آيات كثيرة، وسور متعددة عن حياته بعد البعثة حتى وفاته، كنزول الوحي عليه، ودعوته في مكة، وحادثة الإسراء والمعراج، وهجرته ونشاطه الدعوي في العهد المدني ومغازيه، ولذا فالاستشهاد بأحداث السيرة النبوية بما له صلة وثيقة بتلك الآيات لشرحها وتوضيح معانيها في كتب التفسير كسبب نزول، أو انعكاس لحدث معين ونحوه – لا يستلفت الأنظار، إنما يستلفت الأنظار، بل يشد الانتباه هو ما استحضره ابن كثير من أحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، واستشهد بها في تفسيره أثناء شرحه لآيات ليست ذات صلة مباشرة بتلك الأحداث، أو في مواضع قد لا يتوقع أن تذكر فيها، وهذا الذي نريد الوقوف عنده وإبرازه ليتجلى لنا جانب من جوانب أثر المعرفة التاريخية لديه في كتابه التفسير، وفيما يلي نورد هذه الشواهد مرتبة – بقدر الإمكان – تاريخياً حسب موضوعاتها:

أ- العهد المكي:

استحضر ابن كثير جوانب من مسيرة حياة النبي صلى الله عليه سلم في العهد المكي أثناء تفسيره لعدد من الآيات القرآنية ليزيد في بيانها، ويوسع في معانيها، ويربط بينها وبين سيرة النبي صلى الله عليه وسلم حين قيامه بالدعوة إلى الإسلام في مكة وما واجهه في سبيل ذلك من أذى وعقبات، وما تهيأ له من نصرة ونجاح. ففي جانب تكذيب المشركين وإيذائهم للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة ذكر ابن كثير حال النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه قبل بعثته، وكيف كانوا ينظرون إليه، ثم كيف تغيرت نظرتهم إليه بعد بعثته، فرموه بما هو منه بُراء، وذلك عند شرحه لمعنى قوله سبحانه (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً) (الفرقان: ٥) – فقال "وهذا الكلام – لسخافته وكذبه وبهْته منهم – كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسولَ الله لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بُعِث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، وَرَموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا ماذا يقذفون به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب"(٨٩).

كذلك عند تفسيره لقوله تعالى (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىَ) (النجم ٨-٩)، ساق ابن كثير خبر تكذيب عتبة بن أبي لهب للرسول صلى الله عليه وسلم وإيذائه له حينما ذهب إليه، وقال إنه " ... يكفر بالذي دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدن"، الأمر الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يتوجه إلى لله بالدعاء أن يسلط عليه كلاباً من كلابه، فهلك بهجوم أسد عليه في رحلة له مع قومه، وقد نقل هذا

الخبر في الموضع نفسه في روايتين الأولى مطولة والأخرى مختصرة، ثم أضاف نقلاً عن بعض كتاب السيرة "أن ذلك كان بأرض الزرقاء، وقيل: بالسراة، وأنه خاف ليلتئذ، وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله، فجاء الأسد فجعل يزأر، ثم تخطاهم إليه فضغم رأسه، لعنه الله"[(٩٠)].

كما أنه لما وصل إلى قوله جل وعز عن مؤمن آل فرعون (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ) (غافر: ٢٨)، ذكر بمناسبة بيان معناها خبر أبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي ردد هذا المقطع من الآية حين دفع عن الرسول صلى الله عليه وسلم أذى عقبة بن أبي معيط الذي كان قد لوى ثوبه في عنق الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يصلي بفناء الكعبة، وخنقه خنقاً شديداً[(٩١)]. كذلك روى ابن كثير في شرحه لسورة الحاقة عند قوله (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) (الحاقة: ٤٠) قصة سماع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد هذه الآية وما بعدها إلى آخر السورة الذي كان ذلك سبباً لوقوع الإسلام في قلبه، وكان قد خرج يتعرض للرسول صلى الله عليه وسلم[(٩٢)]. وقد عقب ابن كثير على هذه القصة بقوله "فهذا من جملة الأسباب التي جعلها مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب"[(٩٣)].

وعلى مستوى آخر فيما يخص سيرته صلى الله عليه وسلم في العهد المكي أشار ابن كثير إلى بعض أسباب عدم مقاتلة المسلمين في مكة للمعتدين عليهم من المشركين، وذلك في شرحه لقوله سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ) (النساء: ٧٧) فقال إن المسلمين في مكة "كانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة، منها: قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم،

ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام، وأشرف بقاع الأرض، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداءً لائقاً. فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا المدينة، لما صارت لهم دار ومنعة وأنصار"(٩٤).

ولقد أورد حديث طلب الرسول صلى الله عليه وسلم النصرة في موسم الحج، واستجابة الأوس والخزرج له وقيامه وبنصرته – بمناسبة تفسيره لقوله عز شأنه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ) (الصف: ١٤)، فقال "وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في أيام الحج: "من رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة بي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي"(٩٥)، حتى قيَّض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه، ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم"(٩٦).

ولقد ذكر المبايعين للرسول صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج ليلة العقبة لما فسر آية (ولَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) (المائدة: ١٢) – فقال "وهكذا لما بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيباً"، وقد عددهم بأسمائهم، ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج، ثم عقب على ذلك بقوله "والمقصود أن هؤلاء كانوا عرفاء على قومهم ليلتئذ عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك، وهم الذين ولوا المبايعة والمعاقدة عن قومهم للنبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة"(٩٧).

وقد تطرق للجوء الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه إلى غار ثور في تفسيره لقول الله في شأن أهل الكهف (وإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ ومَا يَعْبُدُونَ إلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا) (الكهف: ١٦) وذكره لقصة لجوئهم إلى الكهف – فقال

"كما فعل بنبيه صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق، حين لجأ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش في الطلب، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى جزع الصديق في قوله: "يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟"(٩٨) ... فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب الكهف"(٩٩).

ب- العهد المدني:

وقف ابن كثير عند عدد من الآيات القرآنية، وزاد في إيضاحها وبيان دلالتها مستوحياً شواهده في ذلك من أحداث السيرة النبوية في عهدها المدني، من ذلك أنه أورد خبراً ذا صلة بأسرى غزوة بدر الكبرى، وهو أسر أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي صلى الله عليه وسلم ثم إطلاق سراحه، ففي شرحه لقوله تعالى عن المؤمنات المهاجرات بعد صلح الحديبية (لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) (الممتحنة: ١٠) وبيانه جواز زواج المشرك من المؤمنة في ابتداء الإسلام قال "لهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رَقّ لها رِقَّةً شَديدَةً، وقال للمسلمين: "إن أريتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا". ففعلوا، فأطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يبعث ابنته إليه، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم مع زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها العاص بن ربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقاً"[١٠٠].

كذلك عرض ابن كثير في موضعين من تفسيره لخبر إسلام عكرمة بن أبي جهل الذي يذكره كتاب السيرة عادة في أعقاب غزوة فتح مكة، ففي شرحه لقوله سبحانه (وإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إلاَّ إِيَّاهُ) (الإسراء: ٧٦) علق ابن كثير بقوله "كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فَأضعن يدي في يدي محمد، فلأجدنه رءوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه"[١٠١]. أما الموضع الآخر الذي عرض فيه إسلام عكرمة فهو عند قوله (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (العنكبوت: ٦٥)[١٠٢].

ولقد ساق طائفة من المواقف التي استشار فيها الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه عند تفسيره قوله سبحانه (وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ) (آل عمران: ١٥٩) فقال "... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الأمر إذا حَدَث، تطييباً لقلوبهم، ليكونوا فيما يفعلونه أنشط لهم، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عُرْض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى بَرْك الغِماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اهب، فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون. وشاورهم – أيضاً – أين يكن المنزل؟ حتى أشار المنذر بن عمرو ...، بالتقدم إلى أمام القوم، وشاورهم في أُحد في أن يقعد في المدينة،

أو يخرج إلى العدو، فأشار جمهورُهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ، فأبى عليه ذلك السَعْدَان: سعدُ بن معاذ وسعدُ بن عُبَادة، فترك ذلك. وشاورهم يومَ الحُدَيبية في أن يميل على ذَرَاري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجئ لقتال أحد، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال. وقال عليه السلام في قصة الإفك: "أشيروا علي معشرَ المسلمين في قوم أَبَنُوا (اتهموا) أهلِي ورَمَوهُم، وايْمُ اللهِ ما علمت على أهلي من سوء، وأبَنُوهم بمَنْ؟، واللهِ ما علمت عليه إلا خيراً"، واستشار علياً وأسامة في فراق عائشة رضي الله عنها. فكان صلى الله عليه وسلم يشاورهم في الحروب ونحوها"(١٠٣). كذلك تطرق لخبر استشارة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في أسرى غزوة بدر أثناء عرضه لأمثلة من الصحابة ممن قتلوا أقارب لهم في سبيل الله حين شرح آية (لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ ورَسُولَهُ ولَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) (المجادلة: ٢٢)، فذكر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أشار بقتل الأسرى بينما أشار الصديق رضي الله عنه بأخذ الفدية(١٠٤).

ولقد أثبت ابن كثير بأمثلة من السيرة – طاعة الصحابة الكرام للرسول صلى الله عليه وسلم وصدقهم معه، ومبادرتهم للجهاد في سبيل الله لما دعاهم إليه، وصبرهم على مقاتلة الأعداء، وتحملهم المشاق في ذات الله – وذلك عند شرحه لآيتين من سورتين مختلفتين، الأولى (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ ورَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة: ٢٤) فبعد أن ذكر خذلان بني إسرائيل لموسى عليه الصلاة والسلام، ونكولهم عن الجهاد – عقب بقوله "وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استشارهم في قتال النفير، الذين جاءوا لمنع العِير الذي كان مع أبي سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم في جمع ما بين التسعمائة إلى الألف،

في العُدة والبَيْض واليَلب (الترس أو الدروع)، فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "أشيروا عليَّ أيها المسلمون". وما يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ. فقال سعد بن معاذ كأنك تُعرَّض بنا يا رسول الله، فوالذي بعثك بالحق لو اسْتَعرضْتَ بنا هذا البحر فخُضْتَه لخُضناه معك، وما تخلَّف منا رجل واحد، وما نَكْرَه أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله فَسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد، ونَشَّطه ذلك"[١٠٥]. أما الآية الأخرى التي وقف عندها ابن كثير وأشاد عند شرحها بمواقف الصحابة رضي الله عنهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم فهي لقوله سبحانه (وظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الغَمَامَ وأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ المنَّ والسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ومَا ظَلَمُونَا ولَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) (البقرة: ٥٧) فبعد بيانه لكفر بني إسرائيل رغم ما شاهدوه من البينات والمعجزات عقب على ذلك بقوله "ومن هاهنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، كما كانوا معه في أسفاره وغزواته، منها عام تبوك، في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرق عادة، ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلا على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم، فجاء قدر مَبْرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم، وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى، فجاءت سحابة فأمطرتهم، فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر"[١٠٦].

وقد نقل ابن كثير نص رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وكذلك نص رسالته صلى الله عليه وسلم إلى مسيلمة الكذاب، حيث يدعو في الأولى هرقل إلى الإسلام، ويرد في الثانية على رسالة

مسيلمة التي زعم افتراءً على الله بأنه أشرك معه في الأمر – نقل هاتين الرسالتين لزيادة بيان معنى "والسلام على من اتبع الهدى" اللتين ضمنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم عبارة "سلام على من اتبع الهدى"، وذلك في تفسير لآية (فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ولا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ والسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى) (طه: ٤٧)، وقد سرد نص كل واحدة منهما بالكامل، حيث ضمن النبي صلى الله عليه وسلم فيهما العبارة الواردة بالآية[١٠٧]. كذلك استشهد ابن كثير أكثر من مرة في تفسيره ببعض ما جاء في محاورة هرقل مع أبي سفيان في شأن النبي صلى الله عليه وسلم في لقائه به في الشام عقب صلح الحديبية، ففي شرحه لقوله سبحانه (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا) (البقرة: ٢١٤) قال "ولما سأل هرقلُ أبا سفيان: هل قتلتموه؟ قال: نعم. قال: فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال: سِجَالا، يُدال علينا ونُدَال عليه. قال: كذلك الرسل تُبْتَلى، ثم تكون لها العاقبة"[١٠٨]. وحين فسر قوله تعالى (إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وأُوْلَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ) (النحل: ١٠٥) عقب على ذلك بقوله "ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيما قال له: أو كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال: هرقل فما كان ليَدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله عز وجل"[١٠٩].

ولقد سرد ابن كثير بعض الأمثلة على تأمين النبي صلى الله عليه وسلم للوفود والرسل القادمين عليه، وذلك بعد شرحه لمعنى قوله سبحانه (وإِنْ أَحَدٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ) (التوبة: ٦)، فذكر وفادة رسل قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، ثم مقدم رسول مسيلمة الكذاب إليه، حيث قال "... كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي

الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحداً بع واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله صلى الله عليه ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك(١١٠)، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم. ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "أتشهد أن مسيلمة رسول الله؟، قال: نعم !، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك"(١١١).

وقد قيض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له: ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر به فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه"(١١٢).

كذلك ساق عدداً من الشواهد من سيرته صلى الله عليه وسلم الدالة على عفوه عمن أرادوا به شراً مع قدرته على الانتقام منهم، وقد ساق تلك الشواهد حين شرحه لمعنى قوله تعالى (والَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ البَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ) (الشورى: ٣٩)، فاستطرد في ذكر صفات المؤمنين، وأوضح أنهم إذا قدروا عفوا، واستشهد بما حصل من النبي صلى الله عليه وسلم فقال "كما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية، ونزلوا من جبل التنعيم، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام(١١٣)، وكذلك عفوه عن غَوْرَث بن الحارث الذي أراد الفتك به عليه السلام حين اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ عليه السلام، وهو في ديه صَلْتاً، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه(١١٤). وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام، ومع هذا لم يعرض له، ولا عاتبه مع قدرته عليه(١١٥).

وكذلك عفوه عليه السلام عن المرأة اليهودية – وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن مسلمة – التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: "ما حملك على ذلك"، قالت: أردت إن كنت نبياً لم يضرك، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك، فأطلقها عليه الصلاة والسلام، ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضي الله عنه قتلها به"[(١١٦)].

ولقد أشار ابن كثير إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعد بيانه أن المراد بالفتح في قوله تعالى (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) (النصر: ١) هو فتح مكة – قال "فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوّم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة"[(١١٧)].

* * *

وثمة تعليقات لابن كثير وردت في تفسيره اقتبس مادتها من السيرة النبوية جاءت في سياق واحد من العهد الملكي والمدني كليهما، منها ما ذكره من حماية الله لرسوله صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب في مكة، ثم حمايته له بالأنصار في المدينة، وذلك بمناسبة شرحه لقوله تعالى (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) (المائدة: ٦٧) – فقال "ومن عصمة الله لرسوله حفْظُه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومُعَانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبَغْضة ونَصْبِ المحاربة له ليلاً نهاراً، بما يخلقه الله تعالى من الأسباب العظيمة بقَدَره وحكمته العظيمة. فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق اله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم

قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم – وهي المدينة –، فلما صار إليها حَمَوه من الأحمر والأسود، فكلما هَمَّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه ..." [(١١٨)].

كذلك تطرق لظروف المسلمين في مكة، وعدم مشروعية القتال فيها، ثم مشروعيته بعد الهجرة إلى المدينة، وذلك عند شرحه لقول الله جل جلاله (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) (الحج: ٣٩)، حيث قال "وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمرَ المسلمين – وهم أقل من العشر – بقتال الباقين لشَقَّ عليهم، ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم – وكانوا نيفاً وثمانين – قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي – يعنون أهل مِنَى – ليالي مِنَى فنقتلهم؟، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لم أومر بهذا"[(١١٩)]. فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذرَ مذَر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجؤون إليه – شرع الله جهاد الأعداء ..."[(١٢٠)].

كذلك أشار إلى لقاء أبي سفيان قبل إسلامه بهرقل في العهد المدني ولقاء جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجاشي في العهد المكي عند تفسيره لقول الله (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ) (يونس: ١٦)، حيث ساق شهادة أبي سفيان وهو على كفره أمام هرقل بأنهم لم يكونوا يتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم بالكذب، ثم اتبعها مباشرة بمقولة خطيب المسلمين المهاجرين إلى الحبشة جعفر رضي

الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما تكلم أمام النجاشي، وذكر أن الله بعثه إليهم رسولاً، يعرفون صدقه ونسبه وأمانته[١٢١].

الثاني – شواهد جامعة بين السيرة النبوية وعصر الخلافة الراشدة:

في شرحه لبعض الآيات القرآنية، وتوسيعه لدلالاتها استشهد ابن كثير بحوادث من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مقرونة بما يتناسب معها من حوادث التاريخ الإسلامي، لاسيما الحقبة المبكرة منه، من ذلك أنه جمع في سياق واحد أقوال ثلاثة ممن شهدوا بمعرفتهم للرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته، اثنين أتت شهادتهم في حياته أمام النجاشي وهرقل – وهما اللذان مر ذكر شهادتهما قبل قليل في آية سورة يونس –، وثالثهم جاءت شهادته أمام نائب كسرى في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قال ابن كثير بعد تفسيره لقوله تعالى (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) (المؤمنون: ٦٩) "ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم[١٢٢]. وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك"[١٢٣].

ومن ذلك أيضا ذكره لروايات لأناس تحققوا من صدق النبي صلى الله عليه وسلم حين التقوا به، وفي المقابل نقله بعدها مباشرة لأخبار وأقوال تدل على كذب مسيلمة الذي قضى على ردته أبو بكر الصديق رضي الله عنه، قال ابن كثير عقب بيانه لمعنى آية (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ المجْرِمُونَ) (يونس: ١٧) "فإن الفرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى ووقت نصف الليل في حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه

وفعاله يَستدّل من له بصيرة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسي"[١٢٤]، ثم أورد خير عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكيف أنه لما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم عرف أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب[١٢٥]، كما أورد خبر لقاء ضمام بن ثعلبة بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويقينه بصدقه صلى الله عليه وسلم[١٢٦]. بعدها عرج على بعض أخبار مسيلمة الكذاب، ونقل شيئاً من أقواله الركيكة، واستطرد في خبر قضاء المسلمين عليه، وما قاله الصديق رضي الله عنه عن تلك الأقوال لما سمعها من قومه الذين قاموا عليه في المدينة تائبين[١٢٧]، ثم عاد يذكر وفاة عمرو بن العاص قبل إسلامه على مسيلمة، وإخبار عمرو له بنزول سورة العصر على الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم زعم مسيلمة كذباً بنزول سورة مثلها عليه، وترديده لكلمات سخيفة، الأمر الذي جعل عمراً يعلن تكذيبه[١٢٨].

ولقد ذكر أخباراً من السيرة وعصر الراشدين تحكي ثبات أفراد من المسلمين على دينهم أمام التعذيب والتهديد والقتل، وذلك عند شرحه لقوله تعالى (مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ) (النحل: ١٠٦) حيث أشار إلى صبر بلال بن رباح رضي الله عنه على تعذيب المشركين في مكة، ثم موقف حبيب بن زيد رضي الله عنه في وجه مسيلمة الكذاب للتمثيل على جواز الاستقتال في سبيل الدين، فقال "كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى أنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدَّة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله، فيأبى عليهم وهو يقول: أحَد أحَد. ويقول: والله لو أعلم لكمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنها وأرضاه[١٢٩]. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أنبي رسول الله؟!، فيقول: لا أسمع. فمل يزل يقطعه إرْباً إرْباً[١٣٠]، وهو ثابت على ذلك"[١٣١]. كما نقل في هذا الموضع خبراً طويلاً يحكي ما حدث لعبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه مع ملك الروم، إذ وقع عبد الله ضري

الله عنه أسيراً بأيدي الروم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعرض عليه ذلك الملك التخلي على دينه واعتناق النصرانية، وإغراه أولاً بالملك وشئ من زينة الحياة الدنيا، فلما أبى رفعه على صليب وهدده بالقتل رمياً بالسهام، ثم بإلقائه في نحاس أوقد بالنار، ثم بالحبس ومنع الطعام، وقد بقي على موقفه لم يتزحزح، الأمر الذي جعل الملك يطلق سراحه وسراح الأسرى المسلمين معه مقابل فقط أن يقبل عبد الله رضي الله عنه رأسه، ففعل "فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حَقّ على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ، فقام فقبل رأسه"(١٣٢).

كذلك أشار ابن كثير إلى بذل أبي بكر الصديق رضي الله عنه ماله في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ودفع عدد من مجاهدي الصحابة رضي الله عنه الماء إلى بعضهم بعضاً في معركة اليرموك إبان عهد الخلفاء الراشدين، وذلك عند تفسير لقوله عز وجل (ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) (الحشر: ٩) — حيث قال "ومن هذا المقام تصدق الصديق رضي الله عنه بجميع ماله، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما أبقيت لأهلك؟"، فقال: أبقيت لهم الله ورسوله(١٣٣). وهذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثالث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم، ولم يشربه أحد منهم رضي الله عنهم وأرضاهم"(١٣٤).

ومما استشهد به ابن كثير من حوادث السيرة وعصر الخلافة الراشدة في مناسبة واحدة هو ما ساقه عند شرحه لقوله تعالى (أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ) (الأنفال: ١٦)، حيث نقل رواية انسحاب المسلمين عن مواجهة الروم في سرية مؤتة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم(١٣٥)، ثم ذكر حادثة فرار بعض جيش المسلمين أمام

الفرس في وقعة الجسر بعد مقتل قائدهم أبي عبيد بن مسعود الثقفي في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه[١٣٦].

الثالث – شواهد من عصر الخلافة الراشدة:

وإذا كان ابن كثير جمع بين شواهد من أحداث السيرة النبوية وعصر الخلفاء الراشدين معاً في مواضع من تفسيره فإنه في مواضع أخرى جاءت شواهده منحصرة في نطاق ذلك العصر، فساق أخباراً إو أشارات تتصل بتاريخ الخلفاء الراشدين في معرض بيانه لمعاني عدد من الآيات القرآنية، من ذلك أنه أشار إلى دليل من الأدلة على أحقية أبي بكر الصديق صلى الله عليه وسلم بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم عند شرحه لقوله تعالى (ولا جُنُبًا إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ) (النساء: ٤٣) فبعد ذكره لنزول هذه الآية في رجال من الأنصار كانت أبوابهم في المسجد، وأن الجنابة تصيبهم فلا يجدون ممراً إلا المسجد. أورد حديث "سُدُّوا على خَوخة في المسجد إلا خَوخةَ أبي بكر"[١٣٧]، ثم عقب قائلاً "وهذا قاله في آخر حياته صلى الله عليه وسلم علماً منه أن أبا بكر رضي الله عنه سيلي الأمر بعده، ويحتاج إلى الدخول في المسجد كثيراً للأمور المهمة فيما يصلح المسلمين، فأمر بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا بابه رضي الله عنه"[١٣٨].

ولقد تطرق لمعركة اليرموك بمناسبة تفسيره لقول الله تعالى (ولَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وأَنتُمْ أَذِلَّةٌ) (آل عمران: ١٢٣) فساق رواية عن عياض الأشعري أحد الذين شهدوا المعركة، فذكر فيها قادة المسلمين يومذاك، وأنهم استمدوا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليهم "إنه قد جاءني كتابكم تَسْتَمِدُّونَنِي، وإني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحصن جندا: الله عز وجل، فاستنصروه، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد نُصر يومَ بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ"[١٣٩].

ومما استشهد به ابن كثير خبر رجوع عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن دخول الشام عقب بلوغه انتشار الوباء بها، ففي شرحه لقوله سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الموْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ) (البقرة: ٢٤٣) ذكر أن هؤلاء خرجوا فراراً من الموت فعوملوا بنقيض قصدهم، ثم قال "ومن هذا القبيل" فذكر أن عمر رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الوباء حل بالشام، فشاور الذين بصحبته من المهاجرين والأنصار ثم مسلمة الفتح، فأشار بعضهم بمواصلة المسير، وأشار آخرون بالرجوع، فأخذ عمر رضي الله عنه بالرأي الثاني، وقد راجعه أبو عبيدة رضي الله عنه في ذلك، فجاءه عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وقال "إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا كان بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه"، فحمد الله عمر ثم انصرف"[١٤٠].

ولقد أشار إلى أحد الإجراءات العمرانية التي اتخذها عمر رضي الله عنه في المسجد الحرام أيام خلافته، وهو نقل المقام من مكانه على جدار الكعبة، فاستطرد عند شرحه لقوله تعالى (واتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى) (البقرة: ١٢٥) فقال "وقد كان المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة، أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ... وإنما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أُمِرْنا باتباعهم ..."[١٤١]. وفي موضع آخر وفي تفسيره لقوله سبحانه (فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ) (آل عمران: ٩٧) عاد يشير إلى إجراء عمر رضي الله عنه في المقام موضحاً بجدار البيت، حتى أخّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إمارته إلى ناحية الشرق، بحيث يتمكن الطُّوَّاف منه، ولا يُشَوّشون على المصلين عنده بعد الطواف"[١٤٢].

كذلك مما تطرق له ابن كثير في تاريخ الخلفاء الراشدين وصية عمر رضي الله عنه حين طعن باختيار خليفة للمسلمين من بعده عن طريق الشورى في ستة نفر من الصحابة، ثم وقوع الاختيار على عثمان بن عفان رضي الله عنه، ففي شرحه لقول الله تعالى (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (الشورى: ٣٨) أومأ إلى عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بالشورى، ثم قال "وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه الوفاة حين طعن الأمر بعده شورى في ستة نفر، وهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم أجمعين[١٤٣]، فاجتمع رأي الصحابة كلهم على تقديم عثمان عليهم، رضي الله عنهم"[١٤٤].

ولقد عرض ابن كثير للخلاف الذي جرى بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ونتائجه في أواخر عصر الخلفاء الراشدين، وذلك في تفسيره لقول الحق عز وجل (وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا) (الإسراء: ٣٣) فذكر أن ابن عباس رضي الله عنه أخذ "من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك، لأنه كان ولي عثمان، وقد قتل عثمان رضي الله عنه مظلوماً، وكان معاوية يطالب عليا رضي الله عنه أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم، لأنه أموي، وكان علي رضي الله عنه يستمهله في الأمر حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب علي من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية، وصار الأمر إليه كما تفاءل ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب"[١٤٥].

الرابع – شواهد من التاريخ بعد عصر الخلافة الراشدة:

استطرد ابن كثير عند شرح بعض الآيات القرآنية، وتعدى في حديثه عنها المستفاد من أحكامها، والمعاني المباشرة لألفاظها، وما يتصل بها من أحاديث نبوية وآثار، وراح يدلل على ما جاء فيها من ألفاظ ومعانٍ بما يتناسب معها مما وقف عليه من تاريخ المسلمين بعد عصر الخلافة الراشدة ومن عاصرهم من الأمم، سواء بإشارات عابرة، أو بحوادث تاريخية معروفة. من ذلك ذكره أن موسى بن نصير قائد الفتح الإسلامي في المغرب والأندلس عثر على مائدة مرصعة بأجود الجواهر واللآلئ نقلاً عن بعض المصادر التاريخية، وقد ذكر هذا الخبر عقب شرحه لقول الله تعالى (قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ العَالَمِينَ) (المائدة: ١١٥) فأشار إلى اختلاف المفسرين في نزول المائدة على قوم عيسى عليه الصلاة والسلام، وبعد أن رجح القول بنزولها قال "وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، باني جامع دمشق، فمات وهي في الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك لخليفة بعده، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة. ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام، فالله أعلم"[١٤٦]. ونلفت النظر هنا أن ابن كثير أضاف في داخل هذا الخبر إضافات العارف بتاريخ بني أمية، مثل وصف الوليد بن عبد الملك بباني جامع دمشق.

كذلك عرض لنظام الخلافة في التاريخ الإسلامي حين شرح قوله سبحانه (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً) (البقرة: ٣٠) فقال بعد ذكره لأقوال العلماء حول جواز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار. قال "وهذا يشبه حال خلفاء بني العباس بالعراق، والفاطميين بمصر، والأمويين بالمغرب"[١٤٧].

وفي شرحه للآيات الخاصة بذي القرنين تحدث عن السد الذي أقامه، ثم ذكر البعثة التي روي أن الخليفة العباسي الواثق بالله (٢٢٧هـ/٨٤١م-٢٣٢هـ/٨٤٦م) قد أرسلها لمعاينة هذا السد، فقال "وقد بعث الخليفة الواثق في دولته بعض أمرائه، ووجه معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد وينعتوه له إذا رجعوا، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيها باباً عظيماً، وعليه أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل في برج هناك، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له، وأنه عال منيف شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى يلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين، وشاهدوا أهوالاً وعجائب"(١٤٨).

ولقد أشار إلى حادث عاصره ووقف عليه بنفسه في أواسط القرن الثامن الهجري، وبالتحديد سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وهو بناء منارة الجامع الأموي بدمشق من جديد، وقد ووردت هذه الإشارة عند شرحه لقول الله جل ثناؤه عن عيسى عليه الصلاة والسلام (وإن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ويَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) (النساء: ١٥٩) حيث ساق أحاديث كثيرة تثبت نزول عيسى عليه الصلاة والسلام، وأنه ينزل عند المنارة البيضاء الشرقية بدمشق، ثم قال "وقد بينت في هذه الأعصار، في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة منارة للجامع الأمَويّ بيضاء، من حجارة منحوتة عِوَضا عن المنارة التي هدمت بسبب الحريق المنسوب إلى صنيع النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وكان أكثر عمارتها من أموالهم"(١٤٩). ففي هذا النص يخبر بإنجاز عمراني، وهو إعادة بناء منارة جامع دمشق البيضاء ٧٤١هـ/١٣٤٠م عقب انهدامها بسبب الحريق الذي شب فيها، وقد أفادنا بأنه استخدام في بنائها الحجارة المنحوتة، وأن نصارى دمشق ألزموا بتحمل أكثر تكاليف عمارتها من أموالهم نظراً لأن أصابع الاتهام في حريقها قد وجهت إليهم.

ولقد تطرق للمغول الذين اجتاحوا العالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري، وحكموا أجزاء واسعة من البلاد الإسلامية، فتحدث عن قانونهم الذي كانوا يرجعون إليه في أحكامهم، وذلك عند تفسيره لقول الله عز وجل (أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ومَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة: ٥٠) فبعد إشارته إلى ما كان يحكم به أهل الجاهلية ضلالات وجهالات – قال "وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذي وضع لهم اليَسَاق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتسبها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بَنِيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله"(١٥٠).

الخامس – حديث عام عن انتصارات الإسلام والمسلمين:

في مواضع متفرقة من تفسيره علق ابن كثير في مقاطع كاملة، وسياق عام عما حدث للإسلام والمسلمين من انتصارات باهرة، وفتوحات واسعة في الصدر الأول من التاريخ الإسلامي، وقد جاءت تلك التعليقات في شرحه لعدد من الآيات القرآنية التي ورد فيها وعد الله عز وجل لأوليائه بحسن العاقبة لهم، أو نصرهم على أعدائهم، أو التمكين لهم في الأرض، وكذلك في شرحه أيضاً لبعض الآيات التي ورد فيها وجور مقاتلة الكفار. فعند قوله سبحانه (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا والَّذِينَ آمَنُوا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ويَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ) (غافر: ٥١) قال "وهكذا نصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه على من خالفه وناوأه، وكذبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان. وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل هل فيها أنصاراً وأعواناً، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر، فنصره عليهم وخذلهم له، وقتل صناديدهم، وأسر سراتهم، فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعده مدة قريبة فتح عليه مكة، فقرت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام المشرف المعظم، فأنقذه الله به مما كان فيه من

الشرك والكفر، وفتح له اليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، ودخل الناس في دين الله أفواجاً. ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فأقام الله أصحابه خلفاء بعده، فبلغوا عنه دين الله، ودعوا الله إلى الله عز وجل، وفتحوا البلاد والرّساتيق والأقاليم والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها. ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة"(١٥١). وفي موضع آخر ذكر مثل هذا الكلام باختصار(١٥٢)، وذلك عند تفسير لآية (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (الأنعام: ١٣٥).

ولقد عرض لانتصارات المسلمين على اليهود والنصارى، ففي توضيحه لقول الله تعالى عن أهل الكتاب (لَن يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذًى وإن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ) (آل عمران: ١١١) علق بقوله "وهكذا وقع، فإنهم يوم خَيْبَر أذلّهم وأرْغَم وأنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قَيْنُقَاع وبني النَّضِير وبني قُرَيْظَة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كَسَرهم الصحابة في غير ما موطن، وسَلَبوهم مُلْك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عِصَابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم، ويحكم بملة الإسلام ..." (١٥٣).

كما أنه أشار إلى نصر المسلمين على النصارى في الشام بعد حديثه بصفة عامة عن فتوحات الصحابة في المشارق والمغارب، ففي شرحه لقوله تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام (وجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (آل عمران: ٥٥) — قال عن المسلمين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم "فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً سلبوا النصارى بلاد الشام، وأَجْلَوهم إلى الروم، فلجؤوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم

إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق أمَّته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية، ويستيفئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مَقْتلة عظيمة جداً، لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها"[١٥٤].

ولقد تحدث ابن كثير عن تمكين الله سبحانه وتعالى للمسلمين في الأرض حديث المؤرخ المستوعب لأحداث التاريخ الإسلامي، المطلع على تفاصيل غزوات المسلمين ومعاركهم مع أعدائهم في داخل الجزيرة وخارجها، السابر للتقلبات التي مرت بها الأمة الإسلامية، ففي شرحه لقوله تعالى (وعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ومَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) (النور: ٥٥) – قال "فإنه لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتح عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم، وصاحب مصر والإسكندرية – وهو المقوقس–، وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تَمَلَّك بعد أصْحَمة، رحمه الله وأكرمه. ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ... قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فَلَمّ شَعَث ما وَهَي عند موته صلى الله عليه وسلم، وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ففتحوا طرفاً منها، وقتلوا خلقاً من أهلها. وجيشاً آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه، ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل ... ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق، فقام في الأمر بعده قياماً تاماً، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله، في قوة سيرته وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكَسَّر

كسرى وأهانه غاية الهوان، وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقَصَّر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام فنحاز إلى قسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة. ثم لما كانت الدولة العثمانية(١٥٥)، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك: الأندلس، وقبرص، وبلاد القيروان، وبلاد سَبْتَةَ مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية. وفتحت مدائن العراق، وخراسان، والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رصي الله عنه، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن، ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زُوي لي منها". نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله ..." (١٥٦).

وحاصل ما مضى أن علم ابن كثير وعنايته به قد تجلت بمجموعة من الشواهد التاريخية التي ضمنها تفسيره لآيات قرآنية لا تنطوي في معانيها المباشرة على حوادث تاريخية تتطلب من المفسر استدعاء التاريخ وعرض ما أثارته من أخبار وأحداث. ويلاحظ أن تلك الشواهد اقتصرت فقط على السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بعدها.

ثالثاً – مناقشة المفسرين بالأحداث والحقائق التاريخية:

تناول المفسرون بالشرح تلك الآيات القرآنية التي تنطوي على الجوانب التاريخية كشرحهم لغيرها من الآيات، وبديهي أن يتفاوت شرحهم دقة وموضوعية فيما يسوقونه من معلومات تاريخية تبعاً لمدى عنايتهم بالتاريخ، وإدراكهم لحقبه ومراحله وعصوره، وفهمهم لتطوراته وتقلباته، ونظراً لكون ابن كثير أحد علماء التاريخ الكبار الذين مرنوا على الكتابة فيه، ورصد أخباره، وتحقيق حوادثه فقد تنبه إلى عديد من الهفوات التي وقع فيها مفسرون قبله عالجوا قضايا تاريخية في تفاسيرهم، كما رجح بما له من معرفة في التاريخ أقوالاً على أقوال. وتعقيبات ابن كثير في تفسيره على أقوال العلماء والمفسرين المتعلقة بالتاريخ نستطيع أن نقسمها إلى قسمين، الأول تعقيباته على أقوال تتعلق بالتاريخ القديم وفي مقدمته تاريخ الأنبياء قبل النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والثاني تعقيباته على أقوال تتعلق بالسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي.

ففيما يتصل بالأنبياء فقد عارض من يقولون بأن مدينة أريحا هي المدينة التي طلب موسى عليه السلام من قومه بني إسرائيل دخولها بصفتها الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم، وذلك في تفسيره لقوله تعالى (يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) (المائدة: ٢١)، وعلل ذلك بقوله "لأن أريحا ليس هي المقصودة بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس كما قاله السدي فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الغَوْر شرقي بيت المقدس"[١٥٧].

ولقد رد قول ابن جرير الطبري بأن يوشع بن نون هو ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب[١٥٨] في شرحه لقول الله سبحانه (أَلَمْ تَرَ إِلَى الملأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ) (البقرة: ٢٤٦) فعقب بقوله "وهذا القول بعيد، لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام، كما هو مصرح به في القصة، وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة، والله أعلم"[١٥٩].

ولقد أنكر ابن كثير على من اعتبر الإسكندر المقدوني اليوناني هو المقصود بذي القرنين الوارد خبره في أواخر سورة الكهف مبيناً أن ذا القرنين المذكور في القرآن كان من الذين طافوا بالبيت العتيق مع إبراهيم عليه السلام، فكان من أتباعه المؤمنين به، وقد صحبه أيضاً الخضر عليه السلام، وقد تطرق ابن كثير لذلك عند شرحه لقول الله جل وعلا (وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا) (الكهف: ٨٣)، فبعد أن ذكر أثراً روي أن ذا القرنين كان شاباً من الروم، بني الإسكندرية، وعلا به ملَك في السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب – عقب بقوله "وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني ابن فيليبس المقدوني، الذي تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكره الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام، أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه الخضر عليه السلام، وأما الثاني فهو إسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذي تؤرخ به من مملكته ملة الروم، وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة ..."(١٦٠).

أما ما يختص بتعقيباته على المفسرين بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاءت في مواضع متفرقة من تفسيره، ففي شرحه لقوله تعالى (وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) (الأنعام: ٥٢) رد على من جعل سبب نزولها مجئ الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلبهما منه أن يخصص لهما مجلساً دون الضعفاء من المؤمنين، معتمداً في جانب من رده على معرفته بوقت إسلامهما، حيث قال بعد أن وصف هذا الخبر بالغريب "فإن هذه الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر"(١٦١).

ولقد أنكر ابن كثير ربط أبي طالب بن عبد المطلب عم الرسول صلى الله عليه وسلم بنزول قوله تعالى (وإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ) (الأنفال: ٣٠) إذ نقل بعض المفسرين[١٦٢] في سبب نزولها أن أبا طالب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يأتمر بك قومك؟ قال: "يريدون أن يسحروني أو يقتلوني أو يخرجوني"، فقال: من أخبرك بهذا؟ قال: "ربي"، قال: نعم الرب ربك ..."، فعقب على ذلك بقوله "وذِكر أبي طالب في هذا، غريب جداً، بل منكر، لأن هذه الآية مدنية، ثم إن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفي أو القتل – إنما كان ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبي طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بعد موت عمه أبي طالب الذي كان يحوطه وينصره ويقوم بأعماله"[١٦٣].

وقد وقف عند رأي الذين قالوا بأن عدد المشركين في بدر كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً بناءً على تفسير قول الله سبحانه (يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ العَيْنِ) (آل عمران: ١٣) أي أنهم ضعفي عدد المسلمين الذين كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً – فقال معقباً "وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيام الناس، وخلاف المعروف عند الجمهور من أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى الألف ..."[١٦٤].

كذلك اعترض على من جهل نزول قوله عز وجل (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ومَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ) (الأنفال: ٦٤) بمناسبة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، واكتمال الأربعين من المسلمين الأوائل به – فرد بقوله "وفي هذا نظر، لأن هذه الآية مدنية، وإسلام عمر كان بمكة بعد الهجرة إلى أرض الحبشة وقبل الهجرة إلى المدينة، والله أعلم"[١٦٥].

وفي أثناء حديثه عن النضر بن الحارث بمناسبة شرحه لقول الله تعالى (وإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) (الأنفال: ٣١) ذكر خبر قتل المسلمين له صبراً عقب بدر، فورد في سياق الخبر أسماء الذين قتلوا معه، فكان من ضمنهم طعيمة بن عدي، فنبه ابن كثير أن سعيد بن جبير جعل في رواية له المطعم بن عدي بدل طعيمة، ثم رد بقوله "وهو غلط، لأن المطعم بن عدي لم يكن حياً يوم بدر، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ: "لو كان المطعم حياً، ثم سألني في هؤلاء النَّتْنَي لوهبتهم له"[١٦٦] – يعني: الأسارى –، لأنه كان قد أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم رجع من الطائف"[١٦٧].

وفي شرحه لقوله سبحانه (وهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) (الفتح: ٢٤) ساق خبراً اعتمده بعض المفسرين سبباً لنزولها في غزوة الحديبية، ومما جاء في هذا الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج بالهدي "فاما دنا من مكة منعوه أن يدخل، فسار حتى أتى منى، فنزل بمنى، فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة، فقال لخالد بن الوليد: "يا خالد، هذا ابن عمك أتاك في الخيل، فقال خالد: أنا سيف الله وسيف رسوله – فيومئذ سمي سيف الله – يا رسول الله، ارم بي أين شئت، فبعثه على خيل، فلقي عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة...."[١٦٨]، فعقب ابن كثير على ذلك بقوله "وهذا السياق فيه نظر، فإنه لا يجوز أن يكون عام الحديبية، لأن خالدا لم يكن أسلم، بل قد كان طليعة المشركين يومئذ كما ثبت في الصحيح[١٦٩]. ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء، لأنهم قاضوه على أن يأتي من العام المقبل فيعتمر ويقي بمكة ثلاثة أيام، فلما قدم لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه. فإن قيل: فيكون يوم الفتح؟ فالجواب: ولا يجوز أن يكون يوم الفتح، لأنه لم يسق عام

الفتح هَدياً، وإنما جاء محارباً مقاتلاً في جيش عَرَمْرَم، فهذا السياق فيه خلل، قد وقع فيه شئ فليتأمل، والله أعلم"(١٧٠).

وفي تفسيره لسورة (المنافقون) نبه إلى خلل في رواية نقلها بعض المفسرين تضمنت خروج عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة تبوك، حيث جاء في تلك الرواية "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه، فلما كانت غزوة تبوك بلغه أنَّ عبدَ الله بن أبي بن سلول قال: ليخرجن الأعز منها الأذل، فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار ..."، فقال ابن كثير معترضاً على هذه الرواية "وقوله: إن ذلك كان في غزوة تبوك – فيه نظر، بل ليس بجيد، فإن عبد الله بن أبي بن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش. وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المرَيسيع، وهي غزوة بني المصطلق"(١٧١).

ولما وصل ابن كثير إلى قول الله سبحانه (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) (النساء: ٥٨) أكد أن كثيراً من المفسرين يقولون إنها نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، ثم قال "واسم أبي طلحة، عبد الله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب القرشي العبدري، حاجب الكعبة المعظمة، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، الذي صارت الحجابة في نسله إلى اليوم، أسلم عثمان هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة، هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأما عمه عثمان بن أبي طلحة، فكان معه لواء المشركين يوم أحد، وقتل يومئذ كافراً"، ثم عقب على ذلك "وإنما نبهنا على هذا النسب، لأن كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليهم هذا بهذا"(١٧٢).

أما ما يتعلق بتاريخ المسلمين بعد السيرة النبوية فقد رد ابن كثير على القائلين بأن الألف شهر المذكورة في قوله تعالى: (لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) (القدر: ٣) تعني مدة ملك بني أمية(١٧٣)، حيث

استندوا في قولهم هذا على حديث يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال أحد رواة الحديث – وهو القاسم بن الفضل الحُدَّائي(١٧٤) –: "فعددنا فإذا هي (يعني مدة بني أمية) ألف شهر، لا تزيد يوماً ولا تنقص"، فكان رد ابن كثير رد المستوعب لأحداث تاريخ المسلمين، العارف بترتيب الخلفاء الذين تعاقبوا على حكم الدولة الإسلامية، العالم بسني مدة كل واحد منهم، فقال "وقول القاسم بن الفضل الحُدّائي إنه حسب مُدّة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص – ليس بصحيح، فإنّ معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه استقل بالملك حين سَلّم إليه الحسن بن علي الإمرة سنةَ أربعين، واجتمعت البيعة لمعاوية، وسمي ذلك عام المجاعة، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين، لكن لم تَزُل يدهم عن الإمرة بالكلية، بل عن بعض البلاد، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة، وذلك أزيد من ألف شهر، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير، وعلى هذا فتقارب ما قاله الصحة في الحساب، والله أعلم ..." (١٧٥).

وهكذا تبين لنا أن وقوف ابن كثير في ثنايا تفسيره للقرآن الكريم عند عديد من أقوال المفسرين ورواياتهم في ميدان التاريخ، ومناقشة ما فيها من هفوات وأخطاء وأوهام، وقد عمت تلك المناقشة عصور التاريخ، فشملت ما يسمى بالتاريخ القديم المتمثل بقصص الأنبياء والأمم قبل الإسلام، وكذلك بالتاريخ الإسلامي المتمثل بالسيرة النبوية وما بعدها.

رابعاً – رجوعه إلى المصادر التاريخية المعتبرة:

تتفاوت المصادر التاريخية من حيث أهميتها ومناسبتها للموضوع المراد الكتابة عنه، وكلما كان الكاتب ذا عناية بالتاريخ – بحثاً ودراسة وكتابة – كلما أحسن اختيار مصادر موضوعه، واستفاد منها في مكانها الصحيح. ومن هذا الجانب ظهر أثر علم ابن كثير ومعرفته بالتاريخ في عزوه إلى كثير من المصادر المعتبرة لدى المشتغلين بالتاريخ، حيث استفاد منها خلال شرحه للآيات ذات المحتوى التاريخي، أو في المواضع التي استشهد فيها بحوادث تاريخية عند شرحه للآيات الأخرى. فصرح أحياناً بالنقل منها، واكتفى تارة بالإحالة إليها. ولقد جاءت استفادة ابن كثير من المصادر التاريخية في تفسيره في مرتبة بعد كتب التفسير الحديث وعلومه[١٧٦]، وقد تنوعت تلك المصادر التاريخية التي رجع إليها، فشملت كتبَ السيرة النبوية والمغازي، وكتبَ التراجم والتاريخ. وطبقاً لتسمية ابن كثير لها حين رجع إليها في ثنايا تفسيره – ندرجها في القائمة التالية مرتبة حسب وفاة مؤلفيها:

١– كتب السيرة والمغازي:

موسى بن عقبة (ت ١٤٠هـ/٧٥٧م): المغازي[١٧٧].

محمد بن إسحاق يسار (ت ١٥١هـ/٧٦٧م): السيرة[١٧٨].

مغازي الأموي (ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م) [١٧٩].

أبو زُرْعَة الرازي (ت ٢٦٤هـ/٨٧٧م): كتابه دلائل النبوة[١٨٠].

أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م): دلائل النبوة[١٨١].

البيهقي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م): دلائل النبوة[١٨٢].

القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ/١١٤٩م) : كتاب الشفا[١٨٣].

السهيلي (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م): الروض الأنف[١٨٤].

أبو الخطاب عمر بن دحية (ت ٦٣٣هـ/١٢٣٥م): التنوير في مولد السراج المنير[١٨٥].

٢- كتب التراجم والتاريخ

ابن سعد (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م): الطبقات[١٨٦].

الأزرقي (ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م): تاريخ مكة[١٨٧].

البخاري (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م): التاريخ الكبير[١٨٨].

يحيى بن إبراهيم بن مزين الطليطلي (ت ٢٥٩هـ/٨٧٢م): سِير الفقهاء[١٨٩].

ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م): المعارف[١٩٠].

الهمداني (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م): الإكليل[١٩١].

ابن مندة (ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م): معرفة الصحابة[١٩٢].

أبو نعيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨): معرفة الصحابة[١٩٣].

الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م): تاريخه[١٩٤] (تاريخ مدينة بغداد).

أبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م): الإنباه على ذكر أصول القبائل والرواة[١٩٥].

أبو عمر بن عبد البر: القصد والأمم في معرفة أنساب العرب والعجم[١٩٦].

أبو عمر بن عبد البر: الاستيعاب[١٩٧].

ابن عساكر (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م): تاريخه[١٩٨] (تاريخ مدينة دمشق).

ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الصحابة[١٩٩] (أُسد الغابة).

النووي (ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م): تهذيب الأسماء[٢٠٠].

وبالإضافة إلى نقله في كثير من المواضع من تفسيره من هذه المصادر التاريخية الآنفة الذكر، أو أحالته إليها. فقد أحال أيضاً القارئ في عدد من المواضع إلى مؤلفاته التاريخية الأربعة وهي: البداية والنهاية[٢٠١]، والسيرة[٢٠٢]، وسيرة الصديق رضي الله عنه[٢٠٣]، وسيرة عمر رضي الله عنه[٢٠٤].

وإذا كان رجوع ابن كثير إلى ذلك الكم المتنوع من المصادر التاريخية يكفي دلالة على أثر علمه بالتاريخ في كتابه التفسير فإن ذلك الأثر يتجلى بصورة أخرى في حسن اختياره لنوعية عديد من تلك المصادر التي عول عليها، وكيفية الاستفادة منها، من ذلك استناده على ابن إسحاق عند التوسع في الحديث عن كثير من أحداث السيرة النبوية في تفسيره، وكذلك بعض أحدث العرب قبل البعثة، فهو بمجرد أن يستفيد مما قاله سابقوه من المفسرين في تفسير الآيات المتعلقة بتلك الأحداث يعرج على ابن إسحاق فينقل منه، ولا تخفي أهمية سيرة ابن إسحاق عند من يكتبون عن أحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم واعتمادهم عليها، قال ابن سيد الناس[٢٠٥] في مقدمة تأليفه في السيرة النبوية "وعمدتنا فيما نورده من ذلك على محمد بن إسحاق، إذ هو العمدة في هذا الباب لنا ولغيرنا".

ومن ذلك أيضاً أنه حين كتب عن سبأ استعان بمصدر خاص بأخبار اليمن وأنساب حمير، وهو كتاب (الإكليل) للهمداني، فاستقى منه طائفة من الأخبار التي تعرف بسبأ هذا، وتكشف جوانب من شخصيته[٢٠٦].

كذلك لما أراد أن يحتج بطوائف ذي القرنين بالبيت مع إبراهيم عليه السلام عول على كتاب خاص بتاريخ مكة، فقال "وذكر الأزرقي في تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم عليه السلام بالبيت"[٢٠٧]، ومعروف أن كتاب الأزرقي هذا "يعد من أوثق المصادر التاريخية عن مكة وأقدمها"[٢٠٨].

ومن جانب آخر يلاحظ أن ابن كثير كثيراً ما ينقل عن علماء أو مؤرخين لهم مصنفات معروفة في السيرة أو التاريخ، فيفتتح النقل منهم بكلمة "قال" دون أن يذكر أسماء كتبهم التي نقل منها، والاحتمال وارد أن يكون رجع إلى تلك الكتب ونقل منها مباشرة. لكنه أهمل ذكرها على الطريقة المعروفة السائدة عند كثير من علماء المسلمين السابقين. وهذا النوع من النقل يمكن تقسيمه إلى قسمين، الأول: من نقل منهم وذكر أسماء كتبهم في بعض المواضع وأغفلها في مواضع كثيرة، وأبرز مثال على ذلك نقوله من ابن إسحاق صاحب السيرة[٢٠٩]، وابن عساكر صاحب تاريخ مدينة دمشق[٢١٠]. أما القسم الثاني فيتمثل في أمثلة كثيرة نذكر من أبرزها نقله عن وهب بن منبه[٢١١]، وعن الواقدي[٢١٢]. ومن هذا القسم الأخير نقله عن بعض أهل الكتاب، من ذلك لأنه لما تحدث عن السامري قال معرفاً فيه "وفي بطريق بطريرك الإسكندرية عند حديثه عن المجامع النصرانية، وقصة اختلاف النصارى في عيسى عليه السلام[٢١٤].

وصفوة القول أن ابن كثير رجع في تفسيره إلى كثير من المصادر التاريخية المعروفة لدى أهل التاريخ ملتزماً في غالب الأحيان بذكر عناوينها وأسماء مصنفيها، وقد بدا حسن استفادته من تلك المصادر في رجوعه إليها في مواضعها المناسبة.

الخاتمـة

ونحن قد فرغنا – بحمد الله وفضله – من دراسة أثر معرفة ابن كثير وعلمه بالتاريخ في كتابه "تفسير القرآن العظيم" عبر الصفحات السابقة فإننا نجمل هنا أهم ما توصلنا إليه من نتائج:

فلقد ظهر لنا أن ابن كثير اعتنى بغالب الآيات القرآنية التي تضمنت عرضاً لقصص الأنبياء والرسل السابقين والأمم الغابرة قبل البعثة النبوية، ثم تلك التي حكت ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه معه زمن التنزيل من حوادث، فحشد الروايات المتنوعة عند شرحها، وعرض أحداثها عرض المستوعب لها، الملم بتفاصيلها، الخبير بمصادرها، فكان على العموم يلخص بأسلوبه الأحداث، ثم يسرد الروايات، أو يقوم بعكس ذلك. وقد تجلت طريقته تلك بصورة واضحة في حديثه عن غزوات النبي صلى الله عليه وسلم.

كما انكشف لنا أنه في أثناء شرحه لكثير من الآيات القرآنية التي لا تحمل في ألفاظها محتوى تاريخاً لم يقف عند المعاني المباشرة لتلك الألفاظ، بل أطنب في شرحها وبيانها بحوادث تاريخية مستمدة فقط من حوادث التاريخ الإسلامي الممتد من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى القرن الثامن الهجري — وهو العصر الذي عاش فيه، فكانت كثير من تلك الحوادث المستشهد بها مستقاة من السيرة النبوية، أما قليلها فتوزع بين العصر الراشدي والأموي والعباسي وعصر هيمنة المغول على العالم الإسلامي.

مما لاحظناه أن ابن كثير وبما لديه من خلفية علمية في مجال التاريخ تنبه إلى العديد من الهنات والأوهام والأخطاء التي صدرت من علماء ومفسرين قبله تطرقوا إلى قضايا تاريخية شملت التاريخ القديم الإسلامي، فتعقبها بالمناقشة والتصحيح معتمداً في ذلك على الحقائق والروايات التاريخية. ومن الأمثلة التي ناقشها من التاريخ القديم القول بأن الإسكندر المقدوني المشهور هو ذو القرنين المذكور في القرآن، ومن التاريخ الإسلامي القول بأن الألف شهر المذكورة في سورة القدر تعني مدة حكم بني أمية.

كذلك فقد رأينا كيف أن ابن كثير كان على صلة بمصادر التاريخ عموماً في أثناء تفسيره، اذ أُتيح لنا رصد أكثر من عشرين مصدراً من المصادر التاريخية ذكرها بعناوينها وأسماء مصنفيها ناقلاً منها أو محيلاً عليها، دع عنك مؤلفاته التاريخية التي عزا إليها. وقد ظهر لنا أن من تلك المصادر ذكراً في التفسير سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن إسحاق، وتاريخ ابن عساكر المعروف بتاريخ مدينة دمشق. وقد لاحظنا أنه دقيق في اختيار المصادر التاريخية المناسبة للقضايا والحوادث التي عالجها في تفسيره.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحواشي والتعليقات

(١) راجع مسعود الرحمن خان الندوي: الإمام ابن كثير، ص ٩٩-١٠١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١١، ص١٢٣.

(٣) ابن حجر: إنباه الغُمر بأبناء العمر، ج١، ص٤٦.

(٤) الرد الوافر على من زعم بأن من سمي ابن تيمية شيخ الإسلام —كافر، ص١٦٢.

(٥) طبقات الشافعية، ج٣، ص٨٥.

(٦) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤، ص١٥٠١.

(٧) البداية والنهاية، ج١٣، ص١٥٣، ٢٦٧، ج١٤، ص١٨٣.

(٨) البداية والنهاية، ج١٣، ص٢٥٠، ٢٥١، ج١٤، ص١٨٣. راجع مسعود الندوي: الإمام ابن كثير، ص١٠٢، محمد الزحيلي: ابن كثير الدمشقي، ص٢٩٣.

(٩) البداية والنهاية، ج١٢، ص٩٨.

(١٠) البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٤.

(١١) البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٢٥.

(١٢) الزحيلي: ابن كثير الدمشقي، ص١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤.

(١٣) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص٨٦.

(١٤) انظر أمثلة في البداية والنهاية، ج١، ص٥٨، ٩٦، ١٠٦، ١٢٣، ١٦٠، ٣١٠، ج٢، ص٢٦، ١٦٨، ١٧٤، ٣٠٧، ج٣، ص١١٥، ١١٨، ٣١٤، ج٤، ص٣١، ٥٢، ٧٦. وقد ظهر لنا أن آخر إحالة لكتابة التفسير في البداية والنهاية لم تتجاوز حديثه عن ما أُعطي الرسول صلى الله عليه وسلم من معجزات، أي نهاية السيرة النبوية في كتابه البداية والنهاية (ج٦، ص٢٨٨).

(١٥) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢١٨، ج٢، ص٣٧، ج٤، ص٢٤٠، ج٦، ص٢٤٨، ٢٦٤.

(١٦) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٦٤.

(١٧) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٧٣-٣٨٤.

(١٨) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥٠-١٥٣.

(١٩) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٨٢-١١٣.

(٢٠) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٥-٤٩.

(٢١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص١٨٩-٢١٢.

(٢٢) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٠٤.

(٢٣) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥٠٤-٥١٠. راجع ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٦٨-٢٧٤.

(٢٤) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥١٥.

(٢٥) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥١٥-٥١٦.

(٢٦) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٠٨-٤٠٩.

(٢٧) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٠٩-٤١٢.

(٢٨) اعتبر ابن كثير الإمبراطور قسطنطين من ملوك اليونان (تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٣) وهذا وم منه، فقسطنطين كان من ملوك الروم (الرومان) (أو الروم البيزنطيين)، أما ليونان فقد حكموا قبلهم. راجع (المسعودي: التنبيه والإشراف، ص١١٣، ١٣٥).

(٢٩) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٣.

(٣٠) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٧٤.

(٣١) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٣٧.

(٣٢) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٣١٠.

(٣٣) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥١١.

(٣٤) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٥١١-٥١٢.

(٣٥) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٧١، ٧٥-٧٦. ما ذكره ابن كثير من أن إمبراطور الفرس سابور ذا الأكتاف هو المعاصر لقيصر الروم هرقل غير صواب، فالمعاصر لهذا الأخير الذي هزم الروم واجتاح بلادهم هو أبرويز، كذلك قصة عبور هرقل نهر جيحون الواقع إلى الشرق من إيران التي ساق تفاصيلها ابن كثير لم نعثر عليها في المصادر الإسلامية المتاحة راجع (الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٠٦-١٠٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١، ص٤٧٤-٤٧٩، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٢،

ص٢٦٣-٢٦٥، ٢٦٦) وراجع أيضاً (أبو الحسن الندوي: المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص٧٩-٩٣، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص١١٨-١١٩، ١٢٦-١٢٨) لكن المؤرخ النصراني سعيد بن البطريق ساق تفاصيل واسعة عن هجوم هرقل على الفرس، وقد شابهه ابن كثير في سياقها العام، وفيه من الاختلاف بينهما أن النهر الذي عبره هرقل عند ابن البطريق هو نهر أرسناس في أرمينية بينما هو عند ابن كثير نهر جيحون (التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص١-٤).

(٣٦) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٤٩.

(٣٧) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٤٩-٢٥١.

(٣٨) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٥١-٢٥٢.

(٣٩) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٥٢. تبعد مأرب عن مدينة صنعاء ١٩٢ كم إلى الشرق منها، وقد بني السد على ممر مائي ضيق تلتقي فيه عشرات الوديان المائية المنحدرة من جبال اليمن، ويسمى هذا الممر بالفلج الأيمن (أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص١٢٥) وقد شيد بالحجر البلق ذات القطع الهائلة، والجزء المنهار من السد يقع على مسافة ١٠٠م من مضيق الممر شرقاً، ويمتد بعرض ٣٥٠م، وارتفاع ٤٥م، أي بما يحاذي الجبلين الواقع بينهما (المرجع نفسه، ص١٢٧).

(٤٠) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٥٢-٢٥٦.

(٤١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٦٦٣. يرى محمد بيومي مهران أن ملكة سبأ تنتمي إلى عصر المكاربة من التاريخ السبأي الذي يرجح بدايته من القرن العاشر أو التاسع قبل الميلاد (دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٢٦٧، ٢٧٣).

(٤٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٦٦٣.

(٤٣) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٤٨.

(٤٤) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٤٧. تبع أسعد أبو كرب أحد ملوك الطبقة الثانية في دولة حمير، وكانوا يعرفون بملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها، ويمتد عصرهم من سنة ٢٧٥م-٥٢٥م (جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام، ص١٦٧).

(٤٥) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٤٨. تعقب محمد بيومي مهران عموم ما قالته المصادر العربية عن تبع أسعد أبي كرب، وهو ما نقله أيضاً ابن كثير هنا، ورأى أن كثيراً مما قيل عنه إنما هو من قبيل الأساطير، ولقد علق على فتوحاته الواسعة بأنه كتب له نجاح كبير، حيث بلغ –كما يقول – "البحر الأحمر والمحيط الهندي، والأقسام الجنوبية من نجد، وربما كان قد استولى على جزء كبير من الحجاز، ومن ثم فإن في روايات الأخباريين عن فتوحاته أساساً من الصحة، إلا أن عنصر المبالغة فيها قد أفسدها إلى حد كبير ..." (دراسات في تاريخ العرب القديم، ص٣٥٧، ٣٦١) أما وفاة تبع أبي كرب قبل الرسول صلى الله عليه وسلم بسبعمائة سنة، وأنه حكم ثلاثمائة وستاً وعشرين سنة، فيقول إن ذلك غير مقبول، إذ أن تبعاً هذا – بناء على دراسات أثرية حديثة – قد توفي حوالي سنة ٤١٥م، أو ٤٢٠م، أو ٤٣٠م، وقد تولى الحكم في حدود سنة ٣٧٨م، أو ٣٨٤م، وهذا يعني أن حكمه امتد نصف قرن تقريباً، وأن الزمن الذي يفصله عن زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يصل إلى مائتي سنة فقط (المرجع نفسه، ص٣٥٩، ٣٦١-٣٦٢).

(٤٦) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٤٢٨-٤٣٠.

(٤٧) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٤٣٠-٤٣١.

(٤٨) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٣٧.

(٤٩) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٣٧-٥٤٣.

(٥٠) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٦٣٣. وانظر ج٥، ص٤٩٧. راجع ابن كثير: السيرة النبوية، ج١، ص٦٦. وفي أخبار عمرو بن لحي انظر (الكلبي: الأصنام، ص٨، ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص١٢٠-١٢٢، المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص٥٦).

(٥١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٨٩-٣٩٠. انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٨٣-٨٤.

(٥٢) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠.

(٥٣) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠.

(٥٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠-٣١. انظر عن اللات والعزى ومناة (الكلبي: الأصنام، ص١٣-١٤، ١٦-١٩).

(٥٥) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٤. لمعرفة المهاجرين إلى الحبشة راجع (ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٣٩٧-٤٠٨).

(٥٦) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٨٢-١١٣.

(٥٧) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١١٣.

(٥٨) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١١٣-١١٤.

(٥٩) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٩٨-٩٩.

(٦٠) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٧٢.

(٦١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٦٥-٢٦٧، ٢٧٢-٢٨٢، ٢٨٥-٢٨٨، ٣١٥-٣٢٥، ٣٣٤-٣٤٠.

(٦٢) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٦١.

(٦٣) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٦١.

(٦٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٦١-١٦٢.

(٦٥) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٩٧-٩٨.

(٦٦) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١٠٣، ١١٩-١٣١، ١٤٢-١٤٣.

(٦٧) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٢٢٢-٢٢٦.

(٦٨) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥٠-١٥١.

(٦٩) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٥١-١٥٤.

(٧٠) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٦١-١٦٢.

(٧١) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٦٣-١٦٤.

(٧٢) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٣٦.

(٧٣) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٣٦-٦٣٧.

(٧٤) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٣٧-٦٣٩.

(٧٥) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٨٢.

(٧٦) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٨٢-١٨٥.

(٧٧) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٦٧.

(٧٨) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٦٧-٣٧٠.

(٧٩) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٧٢-٣٧٣. يلاحظ أن ابن كثير في آخر النص علل رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من تبوك بضيق الحال، وضعف الناس. وقال في مؤلف له آخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم "لما انتهى إلى هناك لم يلق غزواً، ورأى أن دخولهم إلى أرض الشام بهذه السنة يشق عليهم، فعزم على الرجوع" (الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٢١٢). أما المصادر فقد اكتفت بالقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بتبوك بضع عشرة ليلة، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة (ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ٢٣٢، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٠٩، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص٣٢).

(٨٠) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٥-٤٩.

(٨١) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٩. انظر ابن كثير السيرة النبوية، ج٤، ص١٠٠-١٠٨.

(٨٢) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٧٣-٣٨٠.

(٨٣) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٨٠-٣٨١.

(٨٤) احترقت الكعبة يوم السبت الثالث من ربيع الأول سنة ٦٤هـ/٦٨٣م (خليفة بن خياط: تاريخه، ص٢٥٤، الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص١٩٧، ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج٢، ص٦٢).

(٨٥) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٨١-٣٨٣.

(٨٦) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٨٣. راجع فيما قاله الإمام مالك في (السهيلي: الروض الأنف، ج٢، ص٢٦٨، ابن الضياء المكي: تاريخ مكة المشرفة، ص١١٢، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٨، ص٢٥٠).

(٨٧) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٨ من مقدمة المحقق.

(٨٨) راجع فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص٣٩.

(٨٩) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٥٨٣.

(٩٠) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٢١، ٢٢، ٢٦. راجع البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص٣٣٩، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٨، ص٣٠٢، ج٦٧، ص١٦١-١٦٣. وقد جاء عند ابن عساكر أن المكان الذي عدا فيه الأسد على عتيبة هو الشراة (بالشين)، وليس السراة (تاريخ مدينة دمشق، ج٦٧، ص١٦١).

(٩١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٤٦. انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٣٥٩، ابن كثير: السيرة النبوية، ج١، ٤٧٠.

(٩٢) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠٢. انظر ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج٤٤، ص٢٨.

(٩٣) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠٢.

(٩٤) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٢٥.

(٩٥) راجع ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص١٩٤.

(٩٦) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٢٠٩.

(٩٧) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٠٣.

(٩٨) البخاري: الصحيح، ج٣، ص١٣٣٧، البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص٣٤٢، ابن كثير: السير النبوية، ج٢، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٩٩) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٠١.

(١٠٠) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٩١. راجع أيضاً في قصة أبي العاص بن الربيع ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٨٤.

(١٠١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٦١. انظر ابن كثير السيرة النبوية، ج٣، ص٥٦٥.

(١٠٢) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٩.

(١٠٣) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١٣٣. راجع في تفاصيل هذه المواقف ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٠٥-٣٠٦، ٣١٢-٣١٣، ج٣، ص٩١-٩٢، ٣١٠-٣١١، ٤١٦، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٩١-٣٩٦، ٤٠٢-٤٠٣، ج٣، ص٢٦، ٢٠١-٢٠٢، ٣٠٧، ٣٢٩.

(١٠٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٥٨. انظر: ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٤٥٧-٤٥٩، الفصول في سيرة الرسول، ص١٣٦-١٣٧.

(١٠٥) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥١٣. انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٠٦، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ٣٩٢.

(١٠٦) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٤٦. راجع ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص١٦-١٧، الفصول في سيرة الرسول، ص٢١١-٢١٢.

(١٠٧) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٢٧. انظر ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٩٨، ٥٠١، ج٤، ص٩٨.

(١٠٨) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٠٧.

(١٠٩) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٧١-٧٢. راجع في قصة أبي سفيان مع هرقل (البخاري: الصحيح، ج١، ص٧-٨، ج٤، ص١٦٥٧-١٦٥٨).

(١١٠) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٣٢-٤٣٥، البخاري: الصحيح، ج٢، ص٩٧٥-٩٧٦، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٣١٥-٣١٧، ٣٣٠-٣٣٢.

(١١١) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص٣٢٩، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص٩٨.

(١١٢) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٥٦. راجع البيهقي: دلائل النبوة، ج٥، ص٣٣٢، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص٩٩.

(١١٣) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٣٦.

(١١٤) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٢٨٧-٢٨٨، البخاري: الصحيح، ج٤، ص١٥١٥، ابن كثير: السيرو النبوية، ج٣، ص١٦١-١٦٢.

(١١٥) البخاري: الصحيح، ج٣، ص١١٩٢-١١٩٣، ج٥، ص٢١٧٤-٢١٧٦، ٢٣٤٧-٢٣٤٨.

(١١٦) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٠٩. راجع في قصة المرأة اليهودية (ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٧٠-٤٧١، البيهقي: دلائل النبوة، ج٤، ص٢٥٦-٢٦٤، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٣٩٤-٤٠٠).

(١١٧) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٦٥.

(١١٨) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٧٩-٥٨٠.

(١١٩) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٠٢، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٠٤.

(١٢٠) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٤٤.

(١٢١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٧٨. راجع في مقولة أبي سفيان (البخاري: الصحيح، ج١، ص٧-٨، ج٤، ص١٦٥٧، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٠) وفي مقولة جعفر رضي الله عنه (ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٤١٥، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٥٠٠).

(١٢٢) المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال لما قابل رستم "إنا كنا قوماً في شر وضلالة، فبعث الله فينا نبياً، فهدانا الله به ..." (الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٩٦، ٥٢٣) أما الذي قال ما أشار إليه ابن كثير في المتن فهو المغيرة بن زرارة بن النباش الأسيدي، وقد قاله أمام يزدجر ملك الفرس نفسه، حيث قال "فبهث الله إلينا رجلاً معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير أرضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا ..." (المصدر نفسه، ص٥٠٠).

(١٢٣) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٤٨٤.

(١٢٤) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٧٨.

(١٢٥) انظر البيهقي: دلائل النبوة، ج٢، ص٥٣١، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٢٩٤، الفصول في سيرة الرسول، ص٢٦٤.

(١٢٦) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٤، ص١٩١-١٩٢، البخاري: الصحيح، ج١، ص٣٤-٣٥، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٤، ص١١٦-١٢٠.

(١٢٧) انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٠٠.

(١٢٨) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٧٨-٤٧٩. فيما يتعلق بما أورده ابن كثير هنا عن مسيلمة وخبره مع عمرو بن العاص رضي الله عنه راجع (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٦٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص٣٢٦).

(١٢٩) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص٣٩٢، ابن كثير: السيرة النبوية، ج١، ص٤٩٢، ٤٩٤.

(١٣٠) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص١٢٠، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٢، ص٢١٢.

(١٣١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٧٣.

(١٣٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٧٣-٧٤. انظر قصة عبد الله بن حذافة رضي الله عنه في (ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق: ج٢٧، ص٣٥٨، ٣٥٩-٣٦٠، ابن الأثير: أُسد الغابة، ج٣، ص٢١٤) وراجع أيضاً (مشهور بن حسن آل سليمان: قصص لاتثبت، ج٣، ص٧٣-٩٢).

(١٣٣) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج٣٠، ص٦٣-٦٦، ابن الأثير: أُسد الغابة، ج٣، ص٣٢٤-٣٢٥.

(١٣٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص١٧٢. راجع في موقف عكرمة رضي الله عنه يوم اليرموك (الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٢).

(١٣٥) انظر ابن هشام: السيرة ج٤، ص٣٦-٣٧، ابن كثير: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٦٩.

(١٣٦) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٨٣. راجع في خبر فرار بعض المسلمين يوم الجسر (الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٥٩، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٢٨).

(١٣٧) قارن البخاري: الصحيح، ج١، ص١٧٨.

(١٣٨) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٢٨٠.

(١٣٩) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٩٩. راجع ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج٤٧، ص٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٧.

(١٤٠) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٩٤. راجع البخاري: الصحيح، ج٥، ٢١٦٣-٢١٦٥، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص٧٦-٧٧.

(١٤١) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٦٤.

(١٤٢) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٦٩. راجع ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص١٦٤، ج٧، ص٩٣.

(١٤٣) انظر البخاري: الصحيح، ج٣، ص١٣٥٥، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٣٧-١٤٤.

(١٤٤) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٥٠٨.

(١٤٥) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١٤٢. يظهر إن ابن كثير قصد في كلامه الوارد في المتن ما ورد عن زهدم أنه قال "كنا عند ابن عباس يوماً، فقال: والله لأحدثنكم بحديث ما هو بسر ولا علانية، ما هو بسر فأكتمكموه، ولا علانية فأخطب به، وإنه لما وُثِب على عثمان فقُتل، قلت لابن أبي طالب: اجتنب هذا الأمر فستكفاه، فعصاني، وما أُراه يظفر، وأيم الله ليظهرن عليكم ابن أبي سفيان، لأن الله قال (وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا) (الإسراء: ٣٣)، وأيم الله لتسيرن فيكم قريش بسيرة فارس والروم، قال: قلنا: فما تأمرنا يا ابن عباس إن أدركنا ذلك؟ قال: من أخذ منكم بما يعرف نجا، ومن ترك – وأنتم تاركون – كان كبعض هذه القرون التي هلكت" (عبد الرزاق: المصنف، ج١١، ص٤٤٨).

(١٤٦) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٦٥٠. راجع المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج١، ص١٦١، ٢٤٧، ٢٦٥. انظر تعليق شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج١، ص٤٦٧-٤٦٨.

(١٤٧) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢٠٥. ويقصد بقوله "الأمويين في المغرب" أي خلفاء الأمويين في الأندلس.

(١٤٨) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٤٦. راجع في خبر بعثة الواثق إلى سد ذي القرنين (ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص١٦٢-١٧٠، ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٩٩-٢٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص١١١، ج٧، ص١٢٥) وانظر دراسة حول هذا الخبر (محمد خير رمضان يوسف: ذو القرنين، ص٣٤٠-٣٤٥).

(١٤٩) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٢٣. انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٩. وكانت حادثة حريق سوق دمشق وجامعها قد وقع في السنة السابقة سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م (الذهبي: ذيل تاريخ الإسلام، ص٣٧٤، ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص١٨٦).

(١٥٠) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٦٠. تكتب كلمة اليساق بصور مختلفة في الكتب العربية والفارسية، فتكتب أيضاً: ياسا وياسه وياساق ويسق، وهي كلمة مغولية بمعنى حكم وقاعدة وقانون، وأصلها مجموعة من الآداب والعادات المغولية كان جنكيز خان لما وحد المغول قد أمر بتدوينها بالخط الأوريغوري بعد تهذيبها وإضافة بعض الأحكام والقواعد إليها، ثم جعل لها صبغة رسمية، فكان كل حكم من هذه الأحكام يطلق عليه ياسا (فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، ج١، ص٣٣٨) راجع لمعرفة شئ من الأحكام (عطا ملك الجويني: تاريخ فاتح العالم "جهانكشاي"، ج١، ص٦١-٦٨) وقد نقل المقريزي عن أبي هاشم أحمد بن البرهان أنه رأى نسخة من الياسا بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد، ثم ساق ما جاء في هذه النسخة، وبعدها أشار إلى انتشار هذه القوانين المغولية في

بلاد الإسلام، وأرجع ذلك إلى كثرة الأسرى المغول والوافدين منهم بغير الأسر، وعيشهم في بلاد المسلمين بعد دخولهم في الإسلام (المواعظ والاعتبار، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١).

(١٥١) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٤٥٥.

(١٥٢) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٩٤-٩٥.

(١٥٣) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٩٣.

(١٥٤) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٤.

(١٥٥) واضح من السياق أن ابن كثير يقصد بقوله "الدولة العثمانية" أي دولة عثمان بن عفان رضي الله عنه، فَنَعْتُه للدولة الإسلامية بالعثمانية هنا نسبة إلى عثمان رضي الله عنه.

(١٥٦) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٥٦٧-٥٦٨. وفي مواضع أخرى كتب أيضاً ابن كثير عن تمكين الله سبحانه للمسلمين، وقد ابتعد فيها نوعاً ما عن التفصيل الوارد في السياق الذي أوردناه في المتن (تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤٦٤، ٤٦٥، ج٤، ص٥٧٠-٥٧١.

(١٥٧) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥١١. وراجع ج١، ص٢٤٦.

(١٥٨) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٩٧. انظر الطبري: جامع البيان، ج٥، ص٢٩٣.

(١٥٩) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥٩٧. ولقد حدد بعض الباحثين قدوم يعقوب عليه السلام إلى ابنه يوسف عليه السلام في مصر في حدود سنة ١٦٤٣ قبل الميلاد، وزمن خروج موسى عليه السلام من مصر عقب غرق فرعون وقومه في حدود سنة ١٢١٢ قبل الميلاد (لؤي فتوحي وشذى الدركزلي: التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم: تاريخ بني إسرائيل المبكر، ص٩١، ١١٧) أما داود عليه السلام فقد تولى الحكم في فلسطين حسب ما جاء في أسفار اليهود في حدود ١٠٤٠ قبل الميلاد (حسن ظاظا: الفكر

الديني اليهودي، ص٣٧) وإذا اعتمدنا هذه التواريخ فيكون تقدير ابن كثير للمدة بين موسى وداود غير دقيق، وإن كان هذا لا يؤثر على صحة تعقيبه على ابن جرير الطبري من كون يوشع حفيداً ليوسف عليه السلام.

(١٦٠) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٤٠. انظر أيضاً كلاماً لابن كثير حول هذا المعنى بأسلوب آخر (البداية والنهاية، ج٢، ص١٠٥-١٠٦) راجع الأزرقي: أخبار مكة، ج١، ص٧٤. لمعرفة شخصية الإسكندر المقدوني باختصار انظر (محمد أسد صفا: الإسكندر المقدوني الكبير، ص٧-١٠). ولقد استعرض محمد خير رمضان يوسف الإسكندر المقدوني معتمداً على كثير من المصادر العربية والمراجع العربية والأجنبية وخلص إلى أن تاريخه "لم ينقل إلينا كله بشكل صحيح، وإنما هو أخبار وملاحم كتبت بعد مولده بقرون، ثم نقلها وترجمها المؤرخون القدامى عن سابقيهم على علاتها، وزاد من بعدهم ونقصوا حسب مصالحهم وعقائدهم" (ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، ص١٣١) ثم بين أن عقيدته كما جاء في الكتب الأجنبية كانت عقيدة اليونان من عبادة الآلهة وذبح القرابين (المرجع نفسه، ص١٤٥) وفي فصلين آخرين خصص محمد خير يوسف واحد منهما للمصعب الحميري الذي اعتبره بعضهم ذا القرنين، وخصص الآخر لقورش الفارسي الذي اعتبره أيضاً آخرون ذا القرنين، فاستعرض في هذين الفصلين تاريخ هاتين الشخصيتين وحياتهما، ووصل إلى أنهما لا تنطبق عليهما صفات ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم (المرجع نفسه، ص١٦٥-٢٠٧، ٢١١-٢٤٤). وبعد أن ذكر سيد قطب ما قيل عن الحميري هذا قال "وقد يكون هذا القول صحيحاً، ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه، ذلك أنه لا يمكن البحث في التاريخ المدون عن ذي القرنين الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنه شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم. فالتاريخ مولود

حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدون أحداث كثيرة لا يعرف عنها شيئاً، فليس هو الذي يستفتى فيها!" (في ظلال القرآن، ج٤، ص٢٢٩٠).

(١٦١) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٣-٢٤.

(١٦٢) الطبري: جامع البيان، ج٦، ص٢٢٧، ابن أبي حاتم: تفسيره، ج٥، ص١٦٨٨.

(١٦٣) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٩٧.

(١٦٤) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١٦. راجع الواقدي: المغازي، ج١، ص٥٣، ابن هشام: السيرة النبوية، ج٢، ص٣٠٨، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٧.

(١٦٥) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٣٣. انظر ما قاله ابن كثير في (السيرة النبوية، ج٢، ص٣٣).

(١٦٦) انظر البخري: الصحيح، ج٣، ص١١٤٣، ج٤، ص١٤٧٥.

(١٦٧) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٠٠.

(١٦٨) الطبري: جامع البيان، ج٢٢، ص٢٣٨، ابن أبي حاتم: تفسيره، ج١٠، ص٣٣٠٠-٣٣٠١.

(١٦٩) البخاري: الصحيح، ج٢، ص٩٧٤.

(١٧٠) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٢٤-٦٢٥.

(١٧١) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٢٢٢. راجع الواقدي: المغازي، ج٢، ص٤١٦، ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص٤٠٣، الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٥-٦٠٨.

(١٧٢) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٠٧.

(١٧٣) الطبري: جامع البيان: ج٢٤، ص٥٣٣-٥٣٤، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢٠، ص١٣٣.

(١٧٤) راجع في ترجمة بن الفضل الحداني (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص٢٩٠-٢٩١).

(١٧٥) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٤٩٧-٤٩٨. ومما قاله ابن كثير في رد هذا الحديث مما لم يستند فيه على التاريخ "أنه سِيقَ لذم دولة بني أمية، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذَم أيامهم، فإنّ ليلة القدر شريفة جداً، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة بمقتضى هذا الحديث ..." (تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٤٩٨).

(١٧٦) سليمان بن إبراهيم اللاحم: منهج ابن كثير في التفسير، ص١٣٨.

(١٧٧) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١٢٨، ج٤، ص٤٥١، ج٦، ص٢٢٥.

(١٧٨) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٨٠، ٥١٠، ج٤، ص٧١، ٣٩٦، ج٦، ص٢٦، ٣١، ١٨٤، ٢٢١.

(١٧٩) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٨٠، ج٤، ص٢٤٠.

(١٨٠) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٤٠.

(١٨١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١١٥.

(١٨٢) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٥١٢، ج٢، ص٤٧، ج٦، ص٨٥، ٥٧٧.

(١٨٣) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٣٥، ج٣، ص٢٠٥، ج٤، ص٣٠٧، ٤٥٢.

(١٨٤) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٣٢٣.

(١٨٥) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص١١٦، ج٦، ص٥٦٩.

(١٨٦) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٦٥٢.

(١٨٧) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٧٩.

(١٨٨) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٢٨.

(١٨٩) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٩٦.

(١٩٠) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٣٨.

(١٩١) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٥١.

(١٩٢) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٨٠.

(١٩٣) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٦٤.

(١٩٤) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٩٩.

(١٩٥) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٥١، ٦٦٢.

(١٩٦) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٦٢.

(١٩٧) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص١٨١.

(١٩٨) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٤٥٧،ج٢، ص٢٦، ج٣، ص٢٥٩.

(١٩٩) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٥٥١.

(٢٠٠) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٣٨.

(٢٠١) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٢١٨، ج٢، ص٣٧، ج٤، ٢٤٠، ج٦، ص٢٤٨، ٢٦٤.

(٢٠٢) تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٦٨، ٣٢٢، ٣٨٧، ج٤، ص١٦٩، ج٥، ١٦٢، ج٦، ص٣٢٢، ٥٦٥.

(٢٠٣) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٦٧٥.

(٢٠٤) تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٠٢.

(٢٠٥) عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ج١، ص٥٤. راجع ما قاله العلماء عن ابن إسحاق في (المصدر نفسه، ص٥٤-٥٨).

(٢٠٦) تفسير القرآن العظيم، ج٥، ص٢٥١.

(٢٠٧) تفسير القرآن العظيم، ج١، ص٣٧٩، ج٤، ص٢٤٠.

(٢٠٨) الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ج١، ص٧.

(٢٠٩) انظر أمثلة: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٦٦، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٨، ٣٩٤، ج٢، ص١٥، ٨٠، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٨، ١٥٧، ٣٠٧.

(٢١٠) انظر أمثلة: تفسير القرآن العظيم، ج١، ص١٢٤، ٢٢٧، ٢٢٨، ج٢، ٢٦، ٣٨، ١٨٢، ٥٠٧، ٦٥٢، ج٣، ص٩١، ١٦١، ٢٥٩....

(٢١١) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٤٠، ج٥، ص٢٥٢، ٢٥٣، ٣٤٨، ٥٤٨، ج٦، ص٥٤٠.

(٢١٢) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص١٢٦، ١٢٧، ج٣، ص٣٢٢، ج٤، ص٥٢١، ج٦، ص٥٤٠.

(٢١٣) تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٣٧. انظر أيضاً ج٥، ص٣٥٠.

(٢١٤) تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٤٣٧، ج٥، ص٣١٠. حينما عز ابن كثير إلى سعيد بن بطريق عرفه بأنه "بترك الإسكندرية في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية" (المصدر نفسه، ج٢، ص٤٣٧) وقد وهم ابن كثير في قوله هذا، فسعيد بن بطريق المعروف بـ "أفتيشيوس" — وهو المقصود هنا — توفي في رجب سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م وهو على رأس عمله بطريكاً للإسكندرية، حيث ظل يتولى رئاستها سبع سنين وستة أشهر (يحيى بن سعيد الأنطاكي: تاريخ الأنطاكي، ص٢٧، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٣، ص١٤٢-١٤٣) قال ابن أبي أصيبعة ذاكراً مؤلفاته ؟ولسعيد بن

البطريق من الكتب كتاب في الطب، كناش كتاب الجدل بين المخالف والنصراني، كتاب نظم الجوهر، ثلاث مقالات، كتبه إلى أخيه عيسى بن البطريق المتطبب في معرفة صوم النصارى وفطرهم وتواريخهم وأعيادهم، وتواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين، وذكر البطاركة وأحوالهم ومدة حياتهم ومواضعهم وما جرى لهم في ولايتهم. وقد ذيل هذا الكتاب نسيب لسعيد ابن البطريق يقال له يحيى بن سعيد بن يحيى، وسمى كتابه كتاب تاريخ الذيل" (عيون الأنباء، ج٣، ص١٤٣) والكتاب الذي ذيل عليه يحيى بن سعيد طبع بعنوان "التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق" وقد سبق أن أحلنا إليه في إحدى الحواشي.

المصادر والمراجع

أولاً – المصادر:

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن محمد (٦٣٠هـ/١٢٣٢م).

– أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

– الكامل في التاريخ، ط. دار صادر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت. حوالي ٢٤٤هـ/٨٥٨م).

– أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ط. الرابعة، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

ابن أبي أصيبعة: أبو العباس أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م).

– عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ط. دار الثقافة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الأنطاكي: يحيى بن سعيد بن يحيى (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٧م).

تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق عمر بن عبد السلام تدمري، ط. جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م).

– الصحيح، تحقيق مصطفى البغا، ط. الخامسة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

ابن الطريق: سعيد، البطريرك افتيشيوس (٣٢٨هـ/٩٤٠م).

– التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ط. مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٩م.

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين (٤٥٨هـ/١٠٦٥م).

– دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ابن تَغْرِي بَرْدِي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م).

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١م.

الجويني: علاء الدين عطا ملك (ت ذي الحجة ٦٨١ هـ/١٢٨٢م).

– تاريخ فاتح العالم "جهانكشاي" ترجمة محمد التونجي، ط. الأولى، دار الملاح، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

ابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي (ت ٣٢٧هـ/٩٣٨م).

– تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد محمد الطيب، ط. المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م).

– إنباه الغُمر بأبناء العمر، تحقيق محمد عبد المعيد خان، ط. الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ابن خُرْدَاذبَة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م).

– المسالك والممالك، ط. ليدن، ١٨٨٩م.

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م).

– تاريخ ابن خلدون: نشر خليل شحادة، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

خليفة بن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط بن أبي هبيرة العصفري (ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م).

– تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، د. الثانية، دار القلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م).

– الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط. الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م).

– تذكرة الحفاظ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

– ذيل تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط. الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

– سير أعلام النبلاء، حقق بعضه وأشرف على تحقيق بعضه الآخر شعيب الآناؤوط، ط. الثامنة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

السُّهَيْلي: أبو القاسم وأبو زيد عبد الرحمن بن أبي محمد (ت ٥٨١هـ/١١٨٥م).

– الرَّوض الأُنُف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، ط. الأولى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

ابن سيد الناس: أبو الفتح محمد بن محمد (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م).

– عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق الخطراوي ومحيي الدين مستو، ط. الأولى، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

ابن الضياء المكي: أبو البقاء محمد بن أحمد (ت ٨٥٤هـ/١٤٥٠م).

– تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم الأزهري وأيمن نصر الأزهري، ط. الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).

– تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. دار سويدان، بيروت.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ط. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

عبد الرزاق: عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت ٢١١هـ/٨٣٥م).

- المصنف: ط. الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ.

ابن عساكر: أبو القاسم علي بن حسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ/١١٧٥م).

- تاريخ مدينة دمشق، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

ابن فهد: (النجم عمر) محمد بن محمد (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م).

- إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، ط. جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

قاضي ابن قاضي شهبة: أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م).

- طبقات الشافعية، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، ط. الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٧هـ.

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ/١٢٧٣م).

- الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط. الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠م.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).

- البداية والنهاية، ط. المعارف، بيروت.

- تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط. الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٢هـ.

- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

- الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد عيد الخطراوي ومحي الدين مستو، ط. السابعة، دار ابن كثير، دمشق ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ/٨١٩م).

– الأصنام، تحقيق أحمد زكي، ط. الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م).

– التنبيه والإشراف، ط. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

– مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. الخامسة، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

المقري: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م).

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ط. دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م).

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط. صادر، بيروت.

ابن ناصر الدين الدمشقي: محمد بن أبي بكر عبد اله (ت ٨٤٢هـ/١٤٣٨م).

– الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمية شيخ الإسلام —كافر، تحقيق زهير الشاويش، ط. الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ/٧٣٣م).

– السيرة النبوية، تحقيق همام سعيد ومحمد أبو صعيليك، ط. الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

الواقدي: محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م).

– المغازي، تحقيق مارسدن جونس، ط. عالم الكتب، بيروت.

ياقوت الحموي: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (٦٢٦ت هـ/١٢٢٨م).

- معجم البلدان، ط. دار صادر، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ثانياً – المراجع:

أرسلان: شكيب.

- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط. دار مكتبة الحياة، بيروت.

حمادة: فاروق (دكتور).

- مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ط. الأولى، دار القلم، دمشق، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

الزحيلي: محمد (دكتور).

- ابن كثير الدمشقي، ط. الأولى، دار القلم، دمشق، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

زيدان: جورجى.

- العب قبل الاسلام، ط. دار مكتبة الحياة، بيروت،١٩٧٩م.

ال سليمان: مشهور بن حسن.

- قصص لاتثبت، ط. الأولى، دار الصميعي، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

شريف الدين: أحمد حسين.

- اليمن عبر التاريخ: ط. الثالثة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

صفا: محمد أسد.

- الإسكندر المكدوني الكبير، ط. الأولى، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الصياد: فؤاد عبد المعطي (دكتور).

- المغول في التاريخ، ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

ظاظا: حسن (دكتور).

- الفكر الديني اليهودي: ط. الثانية، دار القلم، دمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

العريني: السيد الباز (دكتور).

- الدولة البيزنطية، ط. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.

فتوحي: لؤي (دكتور) ود. شذى الدركزلي.

- التاريخ يشهد بعصمة القرآن العظيم: تاريخ بني إسرائيل المبكر، ط. الأولى، دار الحكمة، لندن، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

قطب: سيد.

- في ظلال القرآن، ط. التاسعة، دار الشروق، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

اللاحم: سليمان بن إبراهيم (دكتور).

- منهج ابن كثير في التفسير، ط. الأولى، دار المسلم، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

مهران: محمد بيومي (دكتور).

- دراسات في تاريخ العرب القديم، ط. الثانية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

الندوي: أبو الحسن.

- المدخل إلى الدراسات القرآنية، ط. الأولى، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

الندوي: مسعود الرحمن خان (دكتور).

- الإمام ابن كثير، د. الأولى، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

يوسف: محمد خير رمضان.

- ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم والصالح، ط. الأولى، دار القلم، دمشق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.